الأدب في عصر بني أمية

ازدهر الأدب العربي في عهد الأمويين وتفتحت أزهاره، وأينعت ثماره، وتضوع عبيره، وأشرق ضياؤه بما حفل من رائع القول، وبديع الفكر، وجيد المعاني، وعبقري الخيال.

ولا تزال صفحة العربيـــة لامعة بذلك التراث الخالد، الذي سجل صور الحياة، ومظاهر التاريخ، وأحداث العصر، وما تعاور على الأمة من خير وشر، وحلو ومر، وشدة ورخاء، وهدوء وسلام، وجلاد وخصام.

وإن الذي يجتلي أسراره، ويستعرض آثاره، ويكتنه ظواهره وأغواره، ليرى العربية في شبابها وقوتها، وعنفوانها وفورتها. واستجابتها الطيعة لمـــا استجد للعرب من حياة، وما تهيأ لهم من ملك واسع وجاه عريض.

كيف قام ملك بني أمية؟

على أنه لابد لدارس الأدب وما اعتراه من تطورات في عهد الأمويين، أن يمر بالأسباب التي كونت هذا العهد، والعوامل التي أنشأت هذا الملك حتى تتضح له الميزات، وتستبين لديه الخصائص والسمات.

فقد قام هذا العصر على أنقاض كفاح مرير بين علي ومعاوية، أزهقت فيه أرواح، وسفكت دماء، واستبيحت حرمات، وهتكت أستار.

ثم هو عصر كله كفاح وجلاد، وحرب وخصام، ومعارك حامية، شهرت فيها السيوف، وشرعت الرماح، وتقارعت الألسنة. فإن قتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه كان كسراً لباب الفتنة، وفتحاً لمغاليق الشر،

على هذه الدولة الإسلامية الناشئة ، إذ تكاثرت عليها الأحداث والخطوب ، وعصفت بوحدتها وقوتها نوائب الدهر ، وأحداث الزمان .

وكان أول الشر أن ظل على ومعاوية يتصارعان على الخلافة ، ويحشد كل منهما لأخيه مايملك من عدة وقوة . ومايدخر من حيلة ووسيلة .

وقد كان اعتماد علىّ على ما يؤمن به من حقه وأوليته ، لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحسن بلائه فى الإسلام ، وصـــدق جهاده فى سبيل الله ، وتأييد أئمة المسلمين له ، وأكثر أهل الحل والعقد فى هذه الأمة .

أما معاوية فكان يدفعه إلى ذلك ماوقر فى نفسه ، وهجع فى أعماقه من رغبة فى السيادة قديمة ، وحب فى الرياسة أصيل . ومن هنا راح يعمل لذلك ، وأخذ يمهد للولاية على المسلمين ، متخذا المطالبة بدم عثمان ستراً وتقية .

ولقد توفر لديه من الوسائل ، واجتمع له من الأسباب ، مامكنه من المضى إلى وجهته ، والإسراع إلى غايته . فقد كان واليا على الشام ، وأقام على ذلك قرابة العشرين عاما ، ظل فيها يؤلف القلوب ، ويجتذب إليه النفوس ، ويتخذ لدى الناس من الأيدى مايجعلهم ينظرون إلى نصرته ، ويخفون فى الأحداث والملمات إلى مساعدته . ولقد رأى الفرصة سانحة للملك فاهتبلها ، والزمان مواتيا فلم يضيعه ؛ ذلك أن عليا حين آلت أمور المسلمين إليه وجد أن الذى ألب النفوس ، وأضغن القلوب على عثمان ، وأشعل الثورة ضده فى كل مكان ، هم أقرباؤه الذين آثرهم بالسلطان وجعل منهم أمناءه وجباته وولاته على الأمصار ، فرأى علىّ لكى يستتب الأمر ، وتطمئن النفوس ، وتسكن الثورة الجامحة ، أنه لابد من عزل ولاة عثمان ، وهنا تسنح الفرصة لمعاوية وينفتح له الباب الذى ينفذ منه إلى أغراضه وأطماعه . فانه حين جاءه كتاب على بالعزل ، تمرد عليه ، ولم يخضع له ، وقال : لاخلافة إلا بعد قتل قتلة عثمان ، ووجد من أهل الشـــام المعين والنصير ، فنهض للثورة على ، ومحاربته ، وقوى من ساعده ، وشد في

عضده ، أن طلحة والزبير ثارا كذلك على « على » واستنفرا عائشة أم المؤمنين لقتاله ، فحاربته حتى هزم جيشها فى موقعة الجمل .

وظلت أمور المسلمين هـكذا تتناشها الفتن ، وتنال منها الثورات ، وتلعب بها العواطف ، حتى انتهت هذه الحال بقتل على ، وتنازل ابنه الحسن عن حقه فى الخلافة بعد قتله بستة أشهر ، حقنا لدماء المسلمين .

وهكذا تم لمعاوية الأمر وانفرد بالولاية على شئون المسلمين سنة ٤١ هـ ، وبذلك قامت دولة بنى أمية ، فى هذا العام ، الذى يعرف بعام الجماعة .

الأحزاب السياسية :

على أن معاوية لم ينهض بأمر الملك إلا والمجتمع الإسلامى تسوده ثلاث جماعات متباينة المنزع ، متنابذة الرأى ، متخالفة الفكرة ، وهى :

١ — جماعة الأمويين ، الذين ناصروا معاوية ، وشايعوه فى فكرته ، وآزروه فى مهمته ، وحاولوا جاهدين أن يتم له الأمر ، وتجتمع لديه أسباب الملك . وكان يدفع هؤلاء إلى العمل الدائب ماورثوا من أطماع قديمة ، ومآرب سرت فى النفس والدم ، واختلطت باللحم والعظم ، وأصبحت فى حياتهم حلم النوم ، ومطرح الخيال فى اليقظة .

كان هذا الفريق منبثا فى بلاد الشام وغيرها من سائر الأمصار الإسلامية ، وخاصة مصر .

٢ — شيعة على بن أبى طالب ، وهم الذين أحبوه وناصروه ، وآمنوا به وعزروه ، وقاموا يناضلون عن حقه ، ويكافحون معه فى سبيل استقرار خلافته ، وكانوا يؤمنون إيمانا قويا أنه أحق بولاية أمر المسلمين من معاوية وأكثر هؤلاء كان فى بلاد العراق وقليل منهم كان فى مصر .

سكتوا عن الخلافة حينا قصيرا عقب تنازل الحسن ، وفى النفوس غضب وتحفز ، وفيها تربص وانتظار ، ثم بدأ معاوية ينقض ميثاقه ، ويخالف عهده ، وأخذ

يعقد البيعة لولده يزيد ، وكان العهد أن تكون للحسين بعد معاوية ، فعادت الثورة من جديد جذعة ، وجعلت تتفاقم وتشتد ، وبدأ الغيظ المكتوم ، والغضب المكظوم ، يبعث على الثورة ، ويدعو الى التمرد ، وكان ماشهده التاريخ من دماء زكية تجمدت على صفحته ، ومآس بشعة لاتزال تدمع لها العيون ، وترتعد الفرائص ، وتجزع النفوس .

٣ — الخوارج : وهؤلاء الذين خرجوا على عليّ ، وكفروه حين قبل التحكيم ، وكانوا يرون أن الخلافة حق لكل مسلم ، مادامت فيه كفاية للحكم ، وأهلية للخلافة .. لافرق بين قرشي وغيره . وكان فيهم عصبية طاغية لما يعتقدون من رأى ، ويدينون به من مذهب ، إلى عداوة حامية ، وبغضاء شديدة للفريقين ، فهم يستحلون دماءهم وأموالهم ، ويرونهم إذ خالفوهم فى الرأى خارجين على الدين ، مارقين من الملة . فلم يهدأوا لحظة ، ولم يدعوا الحكام يستريحون برهة ، فقد كانوا فى كل مكان شوكة فى جنبهم ، وشجى فى حلوقهم ، لا يقاربهم هدوء الطبع ، ولا سكون النفس ، ولا يمر بهم طائف من التسامح . وهؤلاء أدب يصـــور آراءهم ، ويعبر عن عقائدهم ، ويحكى ماتنطوى عليه نفوسهم من مذاهب ، ويعد من أروع وأخلد ماخلفه العرب من تراث ، وما تركوا من آثار .

٤ — وقد نشأ الى جانب هذه الأحزاب المتعادية المتشاكسة فيما بعد ، حزب آخر ، هو حزب الزبير ، وكان معاوية يعرف خطره على خلافته فأوصى ابنه أن يحترس منه ، وأن يتخذ من الأسباب مايبعده عن شره . ومن قوله فى ذلك له : « لست أخاف عليك إلا ثلاثة ، الحسين بن على وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر ، أما الحسين فأرجو أن يكفيكه الله ، وأما ابن الزبير فانه خب ضب ، فان ظفرت به فقطعه إربا إربا (١)

---

(١) الخب بالفتح والكسر هو الرجل الخداع .. والارب بالكسر العضو .

وأما ابن عمر فانه رجل قد وقذه الورع [1] ، فحل بينه وبين آخرته يخل بينك وبين دنياك .

مجتمع تسوده هذه الطوائف ، التي لا تعرف الضعف ولا التراخي . هذه الطوائف التي لا يهن عودها ، ولا يسلس قيادها ، ولا تهدأ ثورتها ، ولا يسكن جموحها هذه الطوائف التي تتراشق في السر والعلن ، وتتصاول بالسنان وتتقاذف باللسان .

مجتمع تصطرع في ساحته هذه القوى الهادرة الثائرة : تموزه حكمة في قيادته وحنكة في ولايته ، ومراس قوي ، وعقلية ناضجة في تدبير أمره . . وكذلك كان معاوية : آتاه الله حلما على خصومه مهما خاشنوه القول ، وجفوا في الخطاب ، ومنحه دهاء وبراعة حيلة ، وتأتيا إلى الأمور من أيسر سبيل . يصفه صاحب الفخري بقوله : كان معاوية عاقلا في دنياه ، لبيبا عالما حليما ملكا قويا جيد السياسة ، حسن التدبير لأمور الدنيا ، عاقلا حكيما فصيحا بليغا ، يحلم في موضع الحلم ، ويشتد في موضع الشدة إلا أن الحلم كان أغلب عليه . وكان كريما باذلا للمال ، محبا للرياسة ، مشغوفا بها . كان يفضل على أشراف رعيته كثيرا . فلا يزال أشراف قريش مثل عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن جعفر ، وعبد الرحمن بن أبي بكر ، وأبان بن عثمان بن عفان ، وناس من آل أبي طالب رضي الله عنهم يفدون عليه بدمشق فيكرم مثواهم ، ويحسن قراهم ويقضي حوائجهم ، ولا يزالون يحدثونه أغلظ الحديث ، ويجبهونه أقبح المجبه ، وهو يداعبهم تارة ، ويتغافل عنهم أخرى ، ولا يعيدهم إلا بالجوائز السنية ، والصلات الجمة . قال يوما لقيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنه وهو رجل من الأنصار : ياقيس ، والله ما كنت أود أن تنكشف الحروب التي كانت بيني وبين علي عليه السلام وأنت حي ، فقال قيس : والله إني كنت أكره أن تنكشف تلك الحروب ، وأنت أمير المؤمنين فلم يقل له شيئا . وهذا من أجل ما كانوا يخاطبونه به .

---

(١) وقذه : سكنه وغلبه وتركه عليلا .

سياسة الأمويين

وأثرها فى الأدب

- ١ -

تولى معاوية بن أبى سفيان أمور المسلمين ، والأمة طوائف متعادية ، وفرق متنابذة ، وجماعات متنافرة متشاكسة . ولكنه لم يترك سبيلا لتوطيد عرشه ، وتأييد ملكه إلا سلكها . فأحيانا تكون وسيلته إلى ذلك المال . فهو يسخو فى بذله ، ويخف لمنحه ، حين يكون المنح والإعطاء مدعاة إلى تأليف القلوب ، وتسكين الأحقاد . وقد جعل عطاء الحسن والحسين ألف ألف درهم ، بعد أن كان خمسة آلاف أيام عمر بن الخطاب ، كما أغدق هو وخلفاؤه على أبناء الأنصار والمهاجرين ، ليشغلهم بالدنيا ومتاعها ، والحياة ولهوها ومفاتنها ، عن المطالبة بالخلافة ، حتى صار الحجاز مباءة الترف ، وانتشر فيه الغناء ، وشغل الكثير ممن ضعف وقارهم ، وخفت موازين الدين فى أنفسهم ، بما دفع إليه الترف من إقبال على اللذات ، وإيثار للشهوات ... يقول السعودى فى مروج الذهب : « كان معاوية يجلس فى مجلسه ويقول : ارفعوا إلينا حوائج من لا يصل إلينا ، فيقوم الرجل فيقول : استشهد فلان فيقول : افرضوا لولده ، ويقول آخر : غاب فلان عن أهله ، فيقول : تعاهدوهم ، أعطوهم ، اقضوا حوائجهم ، اخدموهم » .

وعمد معاوية إلى الشعراء فقربهم ، وأثار شاعريتهم ، ودفعهم إلى الإحسان والتجويد دفعا ، بما أفسح لهم فى قلبه ، ومنحهم من سمعه ، وخلع عليهم من عطايا ، وأغدق من هبات ومنح ، حتى جعل لهم نصيبا فى بيت المال . وكذلك اتبع خلفاؤه من بنى أمية سنته ، وآثروا طريقته ،

ليشتروا ألسنتهم ، ويرضوا رغائبهم ، بما تفيض به قرائحهم من جيد المدح ، ورائع القول ، ومتخير القصائد .

فهذا عامل أثار عواطف الشعراء ، وجعل للأدب سوقا رائجة ، وبضاعة نافقة ، وجعل الحياة تزخر بهذا التراث العبقرى الخالد ، الذى نطالعه فلا ينتهى إعجابنا ، ولا يتضاءل تقديرنا وإكبارنا .

ولقد ظل الشعراء يأخذون عطاياهم من بيت المال ، حتى أبطل ذلك الخليفة الصالح الورع عمر بن عبد العزيز فى عهده . ثم لم تلبث هذه الحال أن عادت بعد موته إلى ما كانت عليه — ومما يؤثر عنه أن الشعراء وقفوا ببابه بعد توليه الخلافة ، حتى طال بهم الوقوف ، فكلمه عدى ابن أرطاة ، وكان أثيراً عنده ، فقال له : إن الشعراء ببابك ، وأفواههم باقية ، وألسنتهم مسنونة ؛ فقال يا عدى : مالى وللشعراء ؟ قال يا أمير المؤمنين ، إن النبى صلى الله عليه وسلم قد مدح وأعطى ، وفيه أسوة لكل مسلم ؛ فسأله عمن بالباب من الشعراء ، فجعل عدى كلما ذكر له شاعراً عد عليه من قوله ما يفسقه به أو يكفره ، ولم يأذن إلا لجرير ، فلما مثل بين يديه قال له : اتق الله ياجرير ، ولا تقل إلا حقاً . فأنشأ يقول :

كم بالیمامة من شمطاء أرملة ... ومن يتيم ضعيف الصوت والبصر
ممن يعدك تكفى فقد والده ... كالفرخ فى العش لم ينهض ولم يطر
يدعوك دعوة ملهوف كأن به ... خبلا من الجن أو مسا من البشر
خليفة الله ماذا تأمرن بنا ... لسنا إليكم ولا فى دار منتظر (١)
مازلت بعدك فى هم يؤرقنى ... قد طال فى الحى إصعادى ومنحدرى
ما ينفع الحاضر المجهود باديتنا ... ولا يعود لنا باد على حضر (٢)
إنا لنرجو إذا ما الغيث أخلفنا ... من الخليفة ما نرجو من المطر

---

(١) لسنا إليكم : أى لسنا واصلين . ومنتظر أى انتظار (٢) الحضر ضد البادى

أتى الخلافة إذ كانت له قدرا كما أتى ربه موسى على قدر
هذى الأرامل قد قضيت حاجتها فمن لحاجة هذا الأزمل الذكر؟

فقال يا جرير : والله لقد وليت هذا الأمر ، وما أملك إلا ثلاثمائة ، فمائة أخذها عبد الله ، ومائة أخذتها أم عبد الله ، يا غلام أعطه المائة الباقية . فقال يا أمير المؤمنين : أنها لأحب مال كسبته إلى . ثم خرج وهو يقول : خرجت من عند أمير المؤمنين يعطى الفقراء ويمنع الشعراء ، وإنى عنه لراض ، ثم أنشأ يقول :

رأيت رقى الشيطان لا تستفزه وقد كان شيطانى من الجن راقيا

— ٢ —

وكان من سياسة الخلفاء الأمويين إغراء الشعراء ببعضهم ، ودفعهم إلى التهاجى ليشغل الناس بمهاتراتهم وأهاجيهم عن الشغب عليهم ، وتتبع أخطائهم . كما كانوا يغضون عن زلاتهم ، ويتغافلون عن هفواتهم ، ويحلون إزاء سيئاتهم ، حتى يسلوا من نفوسهم النقمة ، وينتزعوا منها الحقد والغضب . يروى صاحب الأغانى (١) أن عبد الرحمن بن حسان شبب بأخت معاوية ، فغضب يزيد ، ودخل على معاوية ، فقال : يا أمير المؤمنين : أقتل عبد الرحمن بن حسان ؟ قال : ولم ؟ قال : إنه شبب بعمتى ، قال : وماذا قال ؟ قال : إنه يقول :

طال ليلى وبت كالمحزون وملت الثواء فى جيرون

فقال معاوية : وما علينا من طول ليله وحزنه ؟ أبعده الله . قال : إنه يقول :

فإذاك اغتربت بالشام حتى ظن أهلى مرجفات الظنون

قال : يابنى وما علينا من ظن أهله ؟ قال : إنه يقول :

(١) ج ١٣ ص ١٤٩ .

وهى زهراء مثل لؤلؤة الغو اص ميزت من جوهر مكنون

قال : صدق يابنى ، إنها لكذلك . قال : إنه يقول :

ثم خاصرتها إلى القبـــة الخضـ ـراء تمشى فى مرمر مسنون

قال : لقد كذب فى هذا يابنى . ثم استنشده القصيدة ، فأنشده ، فقال يا بنى ليس يجب القتل فى هذا والعقوبة دون القتل ، ولكننا نكفه بالصلة والتجاوز .. وقيل أن هذا الغزل كان فى بنت معاوية ، وإن عبد الرحمن قد استمر يشبب بها ، ومن ذلك قوله :

رمل هل تذكرين يوم غزال إذ قطعنا مسيرنا بالتمنى

إذ تقولين : عمرك الله هل شيء وإن جل ســـوف يسليك عنى

وكلما ألح يزيد على أبيه بقتله ، قال له : ليست العقوبة من أحد أقبح منها من ذوى القدرة . . . ولما قدم عبد الرحمن على معاوية ؛ وكان يدخل فى أخريات الناس ، أجلسه على سريره ، وأقبل عليه بوجهه وحديثه ، ثم قال له : إن ابنتى الأخرى عاتبة عليك . قال : فى أى شيء ؟ قال لأنك مدحت أختها وتركتها ، قال : فلها العتبى أنا ذاكرها . فلما فعل علم الناس أنه كاذب فى غزله ببنت معاوية ، لأنه ليست له إلا بنت واحدة .

— ٣ —

وكذلك كان من أساليب الخلفاء أن يشغلوا النـــاس عن خلافتهم ، ويصرفوهم عن ملكهم ، بإثارة العصبيات ، وبعث الحزازات ، وذكر الخصومات الجاهلية ، التى أماتها الإسلام وقضى عليها ، فاستحيت بينهم المفاخرات ، وقويت المنافسات الحاقدة ، وانقسم المسلمون إلى أحزاب وشيع ، وطوائف وفرق ؛ وعناصر متحفزة ثائرة ، كل عنصر يناصب أخاه العداء ، ويضمر له

البغض والكراهية ، ويخلق له من المثالب والنقائص مايشوه حفيظته ، ويهيج ضغنه . فظهرت فيهم اليمنية والمضرية ، وكانت المضرية تؤيد معاوية وتسنده ، وقد استطاع أن يستند كذلك على يمنية ، إذ كان متزوجا ميسون بنت بحدل أم يزيد ، وهي من قبيلة كلب اليمنية .

وقد لعبت هذه العصبيات دورها فى التمكين لهذه الدولة ؛ وتقوية أسباب بقائها . على أنها من ناحية أخرى كانت من أسباب سقوطها ، وزوال حكمها ، فقد عمدت اليمنية بمناهدة فيما بعد لانتصار العباسيين والتمكين لقيام دولتهم .

ولعل من أوضح الأمثلة على اضطرام العصبيات ، وإثارة الحزازات ، مايرويه المبرد [1] ، من أن يزيد بن معاوية لما غضب على الأنصار ، حاول أن يدفع كعب بن جعيل التغلبي إلى هجائهم ، فقال له كعب : أأهجو الأنصار ، أرادى أنت إلى الكفر بعد الإسلام ؟ ولكن أدلك على غلام من الحي ، كأن لسانه لسان ثور — يعنى الأخطل — فأغرى يزيد الأخطل بهم ، فقال يهجوهم :

لعن الإله من اليهود عصابة ... بالجزع بين صليصل وصرار [2]
قوم إذا هدر البعير رأيتهم ... حمرا عيونهم من المسطار [3]
خلوا المكارم لستم من أهلها ... وخذوا مساحيكم بنى النجار [4]
ذهبت قريش بالمكارم كلها ... واللؤم تحت عمائم الأنصار

ولما سمع النعمان بن بشير الأنصارى هذا الهجاء دخل على معاوية فحسر عمامته عن رأسه ، ثم قال : يامعاوية أترى لؤماً ؟ ، فقال : ما أرى إلا كرماً ، فقال النعمان يتهدده ويتوعده :

---

(١) رغبة الأمل جـ ٢ ص ٢٧٠ .

(٢) صليصل : موضع على سبعة أميال من المدينة . وصرار بكسر الصاد موضع على ثلاثة أميال

(٣) المسطار : الخمرة المتخذة من أبكار العنب حديثا .

(٤) المساحى : جمع مسحاة وهى مجرفة من حديد .

معاوى إلا تعطنا الحق تعترف ... لحى الأزد مسدولا عليها العمائم (١)
أيشتمنا عبد الأراقم ضلة ... فماذا الذى تجدى عليك الأراقم (٢)
فما لى ثأر دون قطع لسانه ... فدونك من ترضيه عنك الدراهم (٣)

فلما سمع معاوية هذه القصيدة ، بدفع الأخطل إليه ليقطع لسانه فاستجار بيزيد فمنعه ، وأرضى النعمان حتى كف عنه ، إلى أن قال :

وإنى لأقضى عن عيوب كثيرة ... سترقى بها يوما إليك السلالم
أصانع فيها عبد شمس وإننى ... لتلك التى فى النفس منى أكاتم
فما أنت والأمر الذى لست أهله ... ولكن ولى الحق والأمر هاشم
إليهم يصير الأمر بعد شتاته ... فمن لك بالأمر الذى هو لازم؟

— ٤ —

وكان بنو أمية لشدة حرصهم على ملكهم ، ورغبتهم فى دفع الخطر ، ورد عدوان الطامعين ، لا يترددون فى القضاء على منافسيهم ، وتشريد من تحدثه نفسه بالوثوب على ملكهم . حاربوا الخوارج ، وقعدوا لهم كل مرصد ، وتعقبوهم فى كل مكان ، ونكلوا بمن وقع منهم فى قبضة أيديهم أشد تنكيل . وتتبعوا العلويين فسفكوا دماءهم ، ومثلوا بهم فى عنف . وكما كان حكامهم وولاتهم يزدلفون إليهم بالقضاء على الخوارج ، وقتلهم وتشريدهم . كانوا كذلك يتقربون إليهم بالعدوان الغاشم على العلويين .

ولقد رثى شعراء الخوارج والعلويين قتلاهم ، وصوروا فى قصائدهم

---

(١) تعترف : تصبر . لحى الأزد : أى شيوخ الأزد . ومسدولا أى مشدودا يريد أنهم يتلثمون بفضل عمائمهم . وهذا تعريض له بأنهم مستعدون لمنازلته

(٢) الأراقم : حى من تغلب منهم الاخطل وجعله عبدهم تحقيرا له

(٣) من ترضيه : يريد الاخطل

وأشعارهم ما حل بهم من ظلم ، وما لاقوا من عسف ، واستطاعوا بما صدر عنهم من قول رائع مؤثر أن يكتسبوا قلوب الناس ، وأن يبعثوا فيها السخط والضغينة على هؤلاء الظالمين .

— ٥ —

على أن الحق أن معاوية كان يسمع بحلمه وصفحه من يجهل عليه بلفظ أو يخاشنه فى قول ، وهو الذى كان يقول : لو كان بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت ، قيل له : وكيف ذلك ؟ فقال : إن هم شدوا أرخيت ؛ وإن أرخوا شددت . وإن لم تكن إلا كلمة يشتفى بها قاتلها لجعلتها دبر أذنى وتحت قدمى ، ويقول فى إحدى مقالاته : إنى كنت أخطب فيكم فيقوم إلى القائم منكم فيكذبنى على رءوس الناس فأحمل ذلك وأصفح .

يروى القلقشندى (١) : أن معاوية حج ، فسأل عن امرأة من بنى كنانة كانت تنزل الحجون يقال لها الوارمية ، وكانت سوداء كثيرة اللحم ، فأخبر بسلامتها ، فجيء بها ، فقال : ما حالك يا ابنة حام ؟ قالت : اسمى لحام أدعى ، إن عبتنى أنا امرأة من بنى كنانة . قال : صدقت : أتدرين لم أرسلت إليك ؟ قالت : لا يعلم الغيب إلا الله ، قال : بعثت إليك لأسألك علام أحببت عليا وأبغضتنى ووليته وعاديتنى ؟ قالت أو تعفينى يا أمير المؤمنين ؟ قال لا أعفيك : قالت أما إذ أبيت فانى أحببت عليا على عدله فى الرعية ، وقسمه بالسوية ، وأبغضتك على قتالك من هو أولى بالأمر منك ، وطلبك ما ليس لك بحق ، ووليت عليا على ما عقد له من الولاية ، وعلى حبه المساكين وإعظامه لأهل الدين ، وعاديتك على سفكك الدماء ، وجورك فى القضاء ، وحكمك بالهوى ، قال :

(١) ٢٥٩ — ٢٦٠ ج ١ صبح الأعشى

ولذلك انتفخ بطنك وعظم ثدياك . . . قالت : يا هـذا بهند كانت تضرب الأمثال لأبي . قال : يا هذه أربعي فإنا لم نقل إلا خيرا ، إنه إذا انتفخ بطن المرأة ثم خلق ولدها ، وإذا عظم ثدياها تروى رضيعها ، قال لها فهل رأيت عليا ؟ . قالت لقد كنت رأيته ، قال كيف كنت رأيته ؟ قالت رأيته لم يفتنه الملك الذي فتنك ، ولم تشغله النعمة التي شغلتك ، قال لها ، فهل سمعت لكلامه ؟ قالت نعم . والله كان يجلو القلوب من العمى كما يجلو الزيت الطست من الصدا ، قال : صدقت فهل لك من حاجة ؟ قالت وتفعل إذا سألتك ؟ قال : نعم ، قالت تعطيني ماقة ناقة حمراء فيها فحلها وراعيها قال تصنعين بها ماذا ؟ قالت أغذي بألبانها الصغار وأستحيي بها الكبار ، وأصلح بها بين العشائر قال فان أعطيتك ذلك فهل أحل عندك محل علي ؟ قالت : ماء ولا كهذا ، ومرعى ولا كالسعدان ، ووفق ولا كمالك ياسبحان الله أو دونه ، فأنشأ معاوية يقول :

إذا لم أعد بالحلم مني إليكم ... فمن ذا الذي بعدي يؤمل للحلم
خذيها هنيئا واذكري فعل ماجد ... جزاك على حرب العداوة بالسلم

ثم قال : أما والله لو كان عليا ما أعطاك منها شيئا ، قالت والله ولا وبرة واحدة من مال المسلمين . . . ومن ذلك أن عقيل بن أبي طالب لما اعتزل عليا لحاجة وحرص شديد على أموال المسلمين أتى معاوية فأكرمه وأغدق عليه وبسط له وقضى حوائجه . وكأنما شعر بمنته عليه ، فقال له أنا خير لك من أخيك علي ، فقال عقيل : صدقت إن أخي آثر دينه على دنياه وأنت قد آثرت دنياك على دينك فأنت خير لي من أخي ، وأخي خير لنفسه منك .

ودخل معاوية ذات يوم فقال له : إن عليا غير حافظ لك فقد قطع قرابتك وما وصلك ولا اصطنعك فقال له عقيل : والله لقد أجزل

العطية وأعظمها ، ووصل القرابة وحفظها ، ولكنه حفظ أمانته إذ خنتم ، وأصلح رعيته إذ أفسدتم ، وحسن ظنه بالله إذ ساء به ظنك ، فاكفف لا أبالك فانه عما تقول بمعزل ، فسكت معاوية ولم ينطق .

— ٦ —

وبمثل هذه المعاملة اللينة استقر الأمر لبنى أمية ، وتوطدت أركان ملكهم ورست دعائم حكمهم . على أن هذه الدولة كانت كما يقول الجاحظ عربية أعرابية يحرص خلفاؤها على الصبغة العربية فى منطقهم ، وفى مظاهر حياتهم فحافظوا على الأساليب الرفيعة ، وبعثوا بأبنائهم إلى البادية رغبة فى تقويم ألسنتهم وتصحيح سلائقهم وفطرهم ، وتعهدوهم برواة الشعر وحفظته ، ولقنوهم غرائب القصائد ، واستقدموا لهم المربين والمؤدبين حتى نفقت سوق الأدب ، وراجت بضاعته ، وأصبح الخلفاء مقصد الشعراء ، ومثابة الرواة من كل فج . بل إن الخلفاء أنفسهم كانوا يجمعون الشعراء فى مجالسهم ، ويستنشدونهم وينقدونهم ، ويسألون بعضهم رأيهم فى معانى الآخرين ، ويعقبون على هذه الآراء بالموافقة أو المراجعة . ومجالس عبد الملك بن مروان وتقريبه للشعراء ، وكثرة سؤاله من أشعر الناس ، ومن أغزل الناس ، أو أمدح الناس ؟ وأى بيت أهجى ، أو أفخر ، أو أغزل ؟ مشهورة معروفة . .

انتشار اللغة

وقيامها بمقتضيات الملك والسياسة

لقد أثبتت اللغة العربية أنها لغة حية مرنة تستجيب لمقتضيات الحياة في يسر، وتسرع إلى مطالبها في إسماح. فما عجزت إزاء حادث، ولا عقمت عند مهمة. بل لبست للعظائم ثوبا قشيبا ومظهراً خلاباً جديداً سمت به الحسب، وخفقت الشاق ويسرت العسير. عاشت حينا محصورة في بطن الجزيرة تعبر عن حاجاتها، وتستجيب لما يتردد فيها من مظاهر وصور، فلم تتخلف في مظهر، ولم تنكص إزاء حادث.

ثم جاء الإسلام فحملت رسالته، وتلقت أمانته وعبرت عن فضائله ومراميه أصدق تعبير، واشتقت من مبانيها الفاظ رائعة لكل ما استجد من معنى أو طرأ من صور. فلما وثب الدين الجديد على ما جاور الجزيرة من البقاع والأصقاع كانت هي البريد الذي حمله في رفق وأشرق به في سماحة ولطف. وكان مظهرها الجميل الزاهي يمكن لها في الأسماع والقلوب، ويدعو الناس دعاء قريباً إلى الإذعان لها والتعلق بأهدابها، حتى عشقها من ليس من أهلها، وتنافس الدخول عليها الأصيل فيها. وقرض بها الشعر، وسابق الغريب عنها أصحابها إلى أبوابه الملوك والخلفاء فحظي بجوائزهم، ونعم بعطاياهم. وذلك من أسطع البراهين على سمو خصائصها، وجمال مزاياها.

وعلى رغم اتساع الدولة الإسلامية وعظم رقعتها، وتباعد أطرافها، وامتداد آفاقها، إذ وصلت من الشرق إلى الهند والصين، ومن الجنوب إلى السودان، وامتدت إلى جميع بلاد الأندلس غربا وسيبريا شمالا. على الرغم من هذا فقد دخلت العربية إلى تلك الأصقاع غازية فاتحة فخضعت لها الألسنة، وتطامنت لديها الأفكار والقرائح. وتمكن التعامل والاختلاط في البيع والشراء والتعاون

على جميع أعمال الحياة لهذه اللغة من أن تصبح لغة الجميع ، بها ينطقون ، وعليها يعتمدون فى كل مايبغون من شئون الحياة ، وإن جر هذا عليهـــا من ناحية أخرى بعض الوهن والفساد ، بسبب اضطراب السلائق الدخيلة ، واختلاج الألسنة الغريبة ، وقلق المنطق الأجنبي .

على أن هذه الدولة وقد استحدثت لها مظاهر لم تكن موجودة ، وتهيأ لها من صور الحياة وألوانها مالم تألفه من قبل ، وجدت فى اللغة خير مستجيب لهذه الحياة ، فالدولة تغزو وتقاتل وتنشىء الأساطيل ، وتتخذ البريد وتضرب النقود ، وتتخذ ملوكها الحجاب والحرس كما يفعل ملوك الأعاجم وينشئون الدواوين لتنظيم مظاهر الملك . واللغة لا تتخلف عن أداء مهمتها والقيام برسالتها فى هذه الحياة الزاخرة .

لقد وثبت الى دواوين الخراج فعربتها ، وكانت من عهد إنشائها تكتب فى العراق بالفارسية ، وفى الشـام بالرومية ، وفى مصر بالقبطية ، فعرب ديوان العراق من الفارسية فى عهد عبد الملك بن مروان ، على يد صالح بن عبد الرحمن مولى بنى تميم الذى أظهر للحجاج بن يوسف استعداده لنقل الديوان إلى العربية فطلب منه أن يفعل ، وحاول الكتاب الفرس ان يحولوا بينه وبين هذا العمل وبذلوا له مائة الف درهم ، على أن يظهر العجز عن ذلك فأبى ، وتم على يديه نقل الديوان . وكان عبد الحميد الكاتب يعرف له قدره ؛ ويقدر عمله ويقول : لله در صالح ما أعظم منته على الكتاب . وقد غاظ الكتاب الفرس عمله ، ورأوا أنه قد سد عليهم أبواب الرزق وقطع أسباب العيش ؛ فكانوا يقولون له : قطع الله أصلك من الدنيا كما قطعت أصل الفارسية .

ونقل كذلك ديوان الشام من الرومية فى عهد عبد الملك على يد سليمان ابن سرجون .

ويقال إن السبب المباشر فى هذا أن سرجون بن منصور الذى كان كاتبا على الديوان من عهد معاوية كان يستشعر فى نفسه الدل والتيه لاستقلاله

بأمر الحساب ، فلما غاظ عبد الملك بن مروان دله وتراخيه عن بعض ما يطلب ، استشار سليمان بن مسرور كاتبه على الرسائل ، فأبدى استعداده لنقل الديوان من الرومية إلى العربية ، فأنظره سنة حتى تم له ذلك . ولما علم مرجون بذلك داخله الحزن والألم ، وقال لكتاب الروم : اطلبوا الرزق من غير هذه الصناعة فقد قطعها الله عنكم .

أما ديوان مصر فقد كان بالقبطية ، وقد تم تعريبه فى أيام الوليد ابن عبد الملك ، على يد عبد الله بن عبد الملك بن مروان أمير مصر .

فلغة لا ترهقها هذه المظاهر المتزاحمة ، ولا تعجزها تلك الرسالة الضخمة ، بل تجد منها مدداً فياضاً ، وماعوناً قويا ، وثروة مختزنة ، وقدرة قادرة على الاقتباس والاشتقاق والتعريب : هى من غير شك لغة صالحة لمظاهر الملك ، متمشية مع مقتضيات السياسة . ونظرة واحدة إلى ما حفلت به من ألفاظ استدعتها ألوان الحياة الجديدة ، وخلقها تطورها ، تدل على ذلك أبلغ دلالته .

فمن تلك الألفاظ : الدباية ، والمرادة ، والمنجنيق ، والثغور ، والعواصم ، والقصبات ، والولاية ، والحكومة ، والسكة ، والدفاتر ، والجرائد .. ومن الألفاظ المعربة : الطست والطبق والبلور والكعك واللوز والطنبور .

ولو شئنا أن نستقصى لذهبنا فى ذلك إلى مدى بعيد . وخلاصة ذلك أن اللغة قد استجابت لجميع مطالب الحياة ، وقامت بما استجد لهذه الدولة من مظاهر الملك ، ونهضت بكل ما أتيح لها من ألوان الحضارة .

طـــروء اللحن
والعمل على مقاومته

— ١ —

عاش العرب فى جزيرتهم قبل الإســـلام محصورين بين جنباتها ، منتقلين فى ربوعها وأرجائها ، لا يفد عليهم دخيل ، ولا يختلط بهم أجنبى ، ومن هنا ظلت سلائقهم سليمة لا يتسرب إليها زيف ، وبقيت ألسنتهم فصيحة لا يساورها هجنة ولا ضعف ، لأنهم نشأوا نشأة عربية خالصة ، وارتضعوا أفاويق الإعراب من قديم الزمن ، وورثوا سلامة المنطق عن آبائهم وأجدادهم ، على تقادم العصور وتطاول الحقب .

٢

فلما جاء الإسلام ، وبعث محمد صلى الله عليه وسلم بلسان عربى مبين إلى الناس ، يهديهم إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، واقتضى عموم رسالته وشمول دعوته أن يدعى إلى دينه أقوام ليسوا من أهل لغته ، ولا يستطيعون التكلم بلسانه ، كان لا بد أن يختلط بهم العرب ، وأن يداخلوهم ويتحدثوا إليهم ، ويفهموهم الدعوة ، ويبلغوهم الرسالة . ثم بعد الجهاد الشاق ، والكفاح الطويل ، كان الملك الإسلامى والدولة الجديدة واتساع رقعتها وامتـــداد أطرافها ، وتبع هذا إختلاط الغالبين بالمغلوبين ، وارتباط الحاكمين بالمحكومين ، واتخذ الفاتحون من الأعاجم عبيدا وخدما وحاضنات ومربيات أشرفن على تربية أبنائهم وتنشئتهم ؛ إذ أقبلت عليهم الدنيا ، وأسرع إليهم ترفها ، وتكاثر لديهم زخرفها وزينتها ؛ فنشأ عن ذلك بعض الخلل فى النطق ، والاضطراب فى الألسنة .

ولقد راق لكثير من العرب جمال البلاد المفتوحة ، وكثرة خيراتها ،

ووفرة أرزاقها ، فنزحوا إليها واستوطنوها ، وعاملوا أهلها وعاشروهم ، إذ آخى بينهم الإسلام ، وجعلهم الدين سواسية كأسنان المشط ، « لافضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى » ، فأصهروا إليهم ، وأعقبوا منهم ، وامتلكوا كذلك منهم بحكم الفتح والغلبة ، ولذلك نشأ فى الأمصار الاسلامية جيل من الناس جديد الناشئ لهجته ، واضطربت ملكته ، وتسرب الفساد إلى منطقه ، ووجدت له لغة تخاطب هى مزيج من العربى والأعجمى الذى يختلف باختلاف البيئات ؛ فلون الفساد فى العراق يجىء من الفارسية لغة أهل البلاد ، وفى الشام من الرومية ، وفى مصر من القبطية .

أما العرب الأصليون فقد ظلت ألسنتهم سليمة لم يشبها تحريف ، وبقيت لغتهم صحيحة لم يطرأ عليها فساد . وحتى هؤلاء المحدثون الذين كانت نشأتهم وليدة الاختلاط والامتزاج ، كانت محادثاتهم فى مجموعها عربية ، وإن سرت إليها اللحن ، وفشت فيها العجمة .

ولا يظن ظان أن التحريف لم يتمكن من الألسنة ، وأن اللحن لم توجد له مظاهر إلا فى العصر الأموى ، حيث اتسعت الدولة وامتد ظلها ، وفشت المخالطة وتم الامتزاج ، فان من طبائع الألسنة أن ينبو بها القصد ، ويلتوى عليها النهج فى بعض الأحيان . وهذا يحدث فى كل عصر وفى كل زمان ، حتى ليروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أن رجلا لحن بحضرته ، فقال : أرشدوا أخاكم فقد ضل ، ولكن ذلك كان يقابل بالازدراء والامتعاض ، ويجد من الاستهجان والاستفظاع مايقضى عليه لوقته ؛ ولقد قيل إن عمر بن الخطاب مر بقوم يتناضلون ، ورمى بعضهم فأخطأ ؛ فقال له عمر : أخطأت ، فقال : ياأمير المؤمنين (نحن متعلمين) ؛ فقال له عمر : والله لخطؤك فى كلامك أشد علينا من خطئك فى نضالك ؛ ثم قال : احفظوا القرآن وتفقهوا فى الدين ، وتعلموا اللحن[1] .

---

(١) أى تعلموا إتقاء اللحن أو اللغة الجيدة

ويروى أن كاتب أبي موسى الأشعرى كتب عنه كتابا إلى عمر بن الخطاب فلحن فيه وقال : (من أبو موسى) ، فأرسل إليه عمر يقول : قنع كاتبك سوطا .

ثم إن من شأن الدخيل على لغة غير لغته ، والطارىء على لسان غير لسانه ، أن يتعثر نطقه ، وتلتوى طجته ، ويترنح لسانه ، وما يزال كذلك حتى يستطيع بمضى الزمن ، وتتابع الأيام ، أن يندمج فى اللغة الجديدة ، وتصبح سليقة فيه وطبيعة له ، أو أشبه بسليقته وطبيعته ، ولذلك قيل إن بلالا كان يرتضخ لكنة حبشية ، وسلمان كان يميل لسانه إلى الفارسية ، وصهيب كانت فيه لكنة رومية . لكن هذا فى صدر الإسلام كان قليلا لقلة من خالط العرب من الأعاجم .

— ٣ —

أما فى عصر بنى أمية فقد شاع الاختلاط وامتزج العرب بغيرهم ، ورحل كثير منهم إلى الأمصار المفتوحة ، فسكنوها وعاشروا أهلها ، وأصهروا إليهم ، وخالطوهم خلطة القرابة القريبة ، وشب وأيفع ذلك الجيل الذى كان وليد الاختلاط . ومن هنا تمكن الفساد من الألسنة ، وعلق الخلل بالسلائق ، وجثم الضعف على الملكات ، ووجد الخاصة والحراص على اللغة والمكلفون بالعروبة أنه لابد من توجيه العناية إلى أبنائهم وناشئتهم ، فجلبوا لهم الرواة والمؤدبين ، ليشبوا على الفصيح ، وينشأوا على الإعراب .

على أن تيار العجمة لم يلبث أن جرف ما أمامه من مقاومة ؛ وطغى على الخاصة والعامة ، حتى أصبح الفصيح المنطيق يخشى أن يتسرب إليه من اللحن مالم يكن يتوقعه ؛ وحتى كان عبد الملك بن مروان وهو المعروف بقوة بيانه وفصاحة لسانه يقول : شيبنى صعود المنابر وتوقع اللحن .

وبعد أن كان اللحانون فى غير هذا العصر يعدون قلة قليلة ، أصبح الناس يعدون على أصابع اليد من لايلحن فى إعرابه . وقد روى عن الأصمعى : أربعة لم يلحنوا فى جد ولا هزل : الشعبى وعبد الملك بن مروان

والحجاج بن يوسف الثقفي وابن القرية والحجاج أفصحهم .. وحتى هؤلاء الأربعة لم يسلم بعضهم من بجنة اللحن ، فإن أفصحهم وهو الحجاج أثر عنه أنه قال مرة للشعبي : كم عطاؤك (بنصب عطاء) ؟ فقال : ألفين (بالنصب) ، فأدرك الحجاج خطأه وأعاد السؤال مصححا وقال : كم عطاؤك ؟ فقال الشعبي : ألفان ، فقال الحجاج : فلم لحنت فيما لا يلحن فيه مثلك ؟ فقال : لحن الأمير ، فلحنت وأعرب فأعربت ، ولم أمكن ليلحن الأمير فأعرب أنا عليه فأكون كالمقرع له بلحنه ، والمستطيل عليه بفضل القول .

ويروى ابن سلام في طبقات الشعراء أن الحجاج قال ليحيى بن يعمر : أتسمعني ألحن ؟ قال : في حرف واحد قال : في أي ؟ قال في القرآن ، قال ذلك أشنع فما هو ؟ قال : تقول : قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم .. إلى قوله أحب فتقرؤها بالرفع ، فقال : لاجرم ، لاتسمع لي لحنا . ثم ألحقه بخرسان غاضبا عليه

واللحن دائما كان يقابل بالاستنكار والتجهم ، وكان عبدالملك بن مروان يقول : الأعرابية جمال الوضيع واللحن بجنة للشريف ، وكان يستسقط من يلحن ، حتى يروى عنه أن رجلا من علية أهل الشام استأذن عليه وبين يديه قوم يلعبون بالشطرنج ، فقال ياغلام غطها ، ودخل الرجل ، فلما تكلم لحن ، فقال عبد الملك : ياغلام اكشف عنها الغطاء فليس للاحن حرمة .. ومن وصاياه في هذا : أصلحوا من ألسنتكم فان المرء تنوبه النائبة فيستعير الثوب والدابة ولا يحتاج أن يستعير اللسان .

وقيل أول لحن سمع بالبادية : هذه عصاتي ، وأول لحن سمع بالعراق : حي على الفلاح (بكسر الياء) وهي مفتوحة .

وكان هناك لحن آخر دفع إليه ضعف الملكة والقصور في التعبير عما تنطوي عليه النفس من أفكار وآراء ، أو يجلبه اضطراب الفؤاد حين مباغتة حادث أو مفاجأة أمر جلل ، كهذا الخبر الذي يروى عن عبيدالله بن زياد ، حين قال للجند وهو يخطب فيهم : اقتصوا لي سيوفكم ، وقد عيب بذلك يزيد بن مفرغ بقوله :

ويوم فتحت سيفك من بعيد أضعت وكان أمرك للضياع

وقد عد على خالد بن عبد الله القسرى أنه قال مرة وهو على المنبر : أطعمونى ماء ، وقد عيره بذلك يحيى بن نوفل بقوله :

بل المنابر من خوف ومن وهل [1] واستطعم الماء لما جد فى الهرب

وألحن الناس كل الناس قاطبة وكان يولع بالتشديق فى الخطب

يقول المبرد : إن خالداً كان متقدماً فى الخطابة ، متناهياً فى البلاغة ، فخرج عليه المغيرة بن شعبة بالكوفة فى عشرين رجلا ، فمطمطوا به [2] ، فقال خالد : أطعمونى ماء ، فعير بذلك .

على أن هذا اللحن مع شيوعه وكثرته ، ومع استشرائه وتغلغله ، كان يقاوم بشدة ، ويقابل دائماً باستهجان واستنكار ، لأن القوم إذ ذاك عرب ، يزدهيهم جمال الفصحى ، وتستهويهم روعة الأعراب . لأنهم شديدو الحفاظ على كتابهم الكريم . ومن هنا أنفوا من اللحن وحاربوه : وعابوا على أصحابه مامسهم من ضره . أو لحقهم من شره ووزره . حتى ليروى أن رجلا دخل على زياد ، فقال : إن أبونا هلك ، وإن أخينا غصبنا ميراثنا من أبانا ، فقال زياد ، ماضيعت من نفسك أكثر مما ضيعت من ميراثك ، فلا رحم الله أباك حين ترك ولدا مثلك .

واختصم رجلان إلى عمر بن عبد العزيز ، فجعلا يلحنان ، فقال الحاجب : قد أقذيتما أمير المؤمنين بلحنكما ، فقال عمر : أنت والله أشد إيذاء لى منهما .

وتكلم رجل فسبق إلى لسانه مالم يرد فلحن ، فقال : حسبى الله ، والله لقد وجدت حرارتها فى حلقى قبل أن أتكلم بها .

ودخل أعرابى السوق ، فسمع الناس يلحنون ، فقال : ياسبحان الله ، يلحنون ويربحون ؟

---

(١) الوهل : الضعف والفزع . (٢) المنطمطة : تتابع الاصوات واختلاطها فى الحرب وغيرها . ومطمطوا به أى صاحوا .

وكان يحيى بن نوفل يقول : اللحن فى المنطق أقبح من آثار الجدرى فى الوجه
وقال أبان بن سعيد : اللحن فى الرجل ذى الهيبة كالدنس فى الثوب الجديد

هذه المقاومة العنيفة لمظاهر اللحن . إنما دعا إليها الحرص على احترا
الملائق وتقديس العناصر التى طبعوا عليها ؛ وكانت مظاهر المقاومة تتمثل
فى استنكار اللحن كما رأينا ؛ وفى الاحتراس بتلقى اللغة عن الأعراب الخلص
والعلماء والمؤدبين .. فلما ضعفت الألسنة أمام تياره الجارف ، وطوفانه الطاغى
نهض العلماء لوضع النحو والشكل والاعجام .

عناية الخلفاء والأمراء باللغة والأدب

كان للخلفاء والأمراء عناية بالغة ، واهتمام عظيم ، بالأدب واللغة . ولو شئنا أن نضرب الأمثال ، ونستقصي الأخبار ، ونستعرض الوقائع عن عنايتهم هذه واحتفالهم بما تجود به القرائح من صور بارعة ، ومعان رائعة ، وأخيلة نادرة ؛ واهتمامهم بالمظاهر التي ترفع من شأن الأدب ، وتعلي من قدره ، وتمكن له في البقاء والخلود . لو حاولنا أن نحصي كل ذلك لما وسعتنا مئات الصحف .

ولهذه العناية أسباب ومظاهر ، سنوضح أهمها في هذا البحث :

- ١ -

كان خلفاء بني أمية عربا ، يطربهم المعنى الرائق ، واللفظ الفائق ، ويعجبهم الأسلوب الناصع ، والتعبير البديع ، والتصوير الجميل ؛ لما فطروا عليه من ذوق حساس ، وسليقة مرهفة ، وبصيرة ناقدة ، وذكاء متوقد ، وعلم غزير ، ومعرفة بأنساب القبائل وأحسابها ، ومفاخرها ومثالبها .

فلا عجب أن تزداد عنايتهم بكل مظهر يعلي من شأن الأدب ، وأن تعظم رغبتهم في تشجيع الأدباء ورعاية الشعراء وصيانة التراث الأدبي ، على نحو ما سجلته كتب الأدب ، ووعته صحائف التاريخ ، ونقله الرواة .

- ٢ -

وكان من وسائلهم الى حفظ ملكهم ، والابقاء على سلطانهم ، أن عمدوا إلى إثارة العصبيات ، وبعث الخصومات ، وإحياء ما اندثر من منافسات الجاهلية وأحقادها ، ليشغلوا الناس بذلك عن مواثبتهم على الملك ، ومساورتهم

على السلطان ، ومنازعتهم فيما استقر لهم من أمور الخلافة . فعاد الشعراء إلى تسجيل ذلك فى أشعارهم ، وتصويره فى قصائدهم ، وشغلوا بالحديث عن أمجاد القبائل وغزواتها ، رغبة فى مديح ، أو شفاء لحقد ، أو طمعاً فى عطاء .

— ٣ —

وكان الخلفاء والأمراء نقدة كلام ، وأمراء بلاغة ، وفرسان فصاحة . وألباء أدباء . يميزون جيد الأدب من رديئه . ويعرفون صحيحه من زائفه . ويقدرون منازل الشعراء . ويزنون الكلام بمعيار صحيح ، فيقبلون الجيد وينبون عليه ، ويستنكرون الضعيف الزائف ويدلون على موضع نقصه ومكان عيبه ، ذلك لأن لهم من سلائقهم العربية ، وفطرهم الأدبية ، وعلمهم بشوارد الأدب وغرائب الأشعار ، مايعينهم على صدق الحكومة ، ويدفعهم إلى حسن التقدير وجمال المثوبة . وهل هناك أدل على صفاء الذوق ، وقوة الملاحظة ، ودقة النقد وصادق التمييز ، مما يؤثر عن عبد الملك الخليفة الأديب الأريب ، إذ دخل عليه ابن قيس الرقيات وقد أمنه بعد خروجه عليه ، فمدحه بقوله :

إن الأغر الذى أبوه أبو العا ص عليه الوقار والحجب
يعتدل التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب

فقال عبد الملك يابن قيس تمدحنى بالتاج كأنى من ملوك العجم ، وتقول فى مصعب :

إنما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك عزة ليس فيه جبروت منه ولا كبرياء

ثم قال له عبد الملك : أما الأمان فقد سبق لك ولكن لا تأخذ فى المسلمين عطاء أبدا

ومما يدل على شدة ملاحظتهم وحضور بديهتهم وألمعيتهم فى النقد ، أن أبا زيد الأسلمى دخل على ابراهيم بن هشام فأنشده : (يابن هشام يا أخا الكرام) فغضب إبراهيم وقال : إنما أنا أخوهم ، وكأنى لست منهم ، ثم أمر به فضرب بالسياط

ولما أدرك الشعراء أن الخلفاء والأمراء يمنحون جيد الأشعار ، ومتخير

القصائد ، منزلة عالية ، ويثيبون عليه مثوبة عالية ، وأنهم يتحرون الوطن العيب ، ويفطنون في سرعة عجيبة لمكمن النقص ، ويحضون الزلل ، ويعاقبون على ذلك عقوبة أقلها حرمان العطاء ، وقد كان الخلفاء لما يلقن الشعراء من ذلك ، حريصون أشد الحرص على التجويد والتهذيب ، وبالغوا أعظم المبالغة في تقويم بنات أفكارهم ، تهذيب قصائدهم ، فتتبع لهم القلوب المغفلة ، وتلين النفوس العصية ، وتستدر العطايا السنية ، وتستل داء النفس من حقد دفين ، وغل مكين .

— ٤ —

وكان الخلفاء والأمراء يطربون أيما طرب لسماع الجيد من المدح ، والبليغ من الثناء ، وكانوا في نشوة هذا الطرب ، وفي غمرة تلك الأريحية : يصفحون عن المسيء ، ويعفون عن المذنب ، ويقبلون شفاعة الشعر :

يروى أن يزيد بن عبد الملك رد الأحوص الشاعر من منفاه ، لبيت شعر له غنته فيه (جميلة) المغنية ، وهو قوله :

كريم قريش حين ينسب والذي أقرت له بالملك كهلا وأمردا

فطرب يزيد وقال : ويحك من كريم قريش هذا ؟ قالت : أنت ، وقد قاله الأحوص المنفي ، فكتب من فوره برده ، وأنفذ له حللا سنية وأدناه وقربه ؛ وقال له يوما : لولم تبت إلينا بحق ولا صهر ولا رحم إلا بقولك :

وإني لأستحييكمو أن يقودني إلى غيركم من سائر الناس مطمع

لكفاك ذلك عندنا .

ويؤثر أن الحجاج طلب العديل الشاعر ، حتى لم يجد منه مهربا ؛ فدخل عليه وأنشد بين يديه :

خليل أمير المؤمنين وسيفه لكل إمام صاحب وخليل

به نصر الله الخليفة منهضو وثبت ملكا كاد عنه يزول

فأنت كسيف الله والأرض خالد تصول بعون الله حين تصول

فقال له الحجاج : أولى لك [١] ، قد فجرت ، وفرض له ، وأعطاه عطاءه .

وكان يسر الخلفاء أن يتقرب الشعراء إليهم بقصائد الاطراء ، وأن يخصوهم بها ، فلا يتجاوزوهم إلى غيرهم من الولاة والعظماء .

حتى إن عبد الملك كان يحس فى نفسه موجدة على جرير لانقطاعه لمدح الحجاج . وكلما حاول جرير أن ينشده منعه وقال له أنما أنت شاعر الحجاج . ولقد أراد الحجاج أن يقدم إليه يدا بأنشاده بين يدى أمير المؤمنين ، فأوفده مع ابنه محمد إليه ، فلما دخل عليه قال له أنشدنى ما قلت فى الحجاج فأنشده :

صبرت النفس يا ابن أبى عقيل ... محافظة فكيف ترى الثوابا
ولو لم يرض ربك لم ينزل ... مع النصر الملائكة الغضابا
إذا سمر الخليفة نار حرب ... رأى الحجاج أشبهها شهابا

قال صدقت ، مات ، فأنشده :

طربت لعهد ميحة المنازل ... وكيف تصابى المرء والشيب شامل ؟

يقول جرير : فما فرغت منها حتى خيلت الغضب فى وجه أمير المؤمنين ؛ ثم قال هات ما قلت فى الحجاج ، فأنشدته :

هاج الهوى لفؤادك المهتاج ... فانظر بتوضح باكر الأحداج [٢]

ومنها :

من سد مطلع النفاق عليهم ... أم من يصول كصولة الحجاج
أم من يغار على النساء حفيظة ... إذ لا يثقن بغيرة الأزواج
إن ابن يوسف فاعلموا وتيقنوا ... ماضى البصيرة واضح المنهاج

---

(١) كلمة تهديد ووعيد ، أى قاربك ما يهلكك والمراد بها هنا الامتحان .
(٢) جمع حدج بالكسر : وهو مركب للنساء كالمحفة .

وما زال عبد الملك يقدم الشعراء ويؤخر جريرا ، إلى أن توسل اليه محمد بن الحجاج ، فأذن له في مدحه ، فأنشده قصيدته :

أتصحو أم فؤادك غير صاح ... عشية هم صحبك بالرواح ؟
يقول العاذلون علاك شيب ... أهذا الشيب ينهض مراحي (١)

ثم قال :

تعزت أم حزرة ثم قالت : ... رأيت الواردين ذوي امتتاح (٢)
تعلل وهي ساغبة بنيها ... بأنفاس من الشبم القراح (٣)
سأمتاح البحور بجانبيني ... أذاة اللوم وانتظري امتياحي
ثقي بالله ليس له شريك ... ومن عنده الخليفة بالنجاح
أغثني يافداك أبي وأمي ... بسيب منك إنك ذو ارتياح
فاني قد رأيت على حقا ... زيارتي الخليفة وامتداحي
سأشكر إن رددت إلى ريشي ... وأنبت القوادم في جناحي
ألستم خير من ركب المطايا ... وأندى العالمين بطون راح ؟

فطرب عبد الملك ، وجعل يقول : نحن كذلك وما زلنا كذلك . ثم قال له أترى أم حزرة ترويها مائة ناقة ؟ فقال : إذا لم تروها ياأمير المؤمنين فلا أرواها الله .

ومما يدل على سلامة أذواقهم ، ورغبتهم في إثارة السبق والمنافسة بين الشعراء ، مايؤثر من أن الفرزدق وجريرا اجتمعا عند عبد الملك ، فقال الفرزدق : النوار طالق ثلاثا إن لم أقل شعرا لايستطيع ابن المراغة (٤) أن ينقضه أبدا ولا يجد في الزيادة عليه مذهبا ، فقال عبد الملك ماهو ؟ قال :

---

(١) المراح : النشاط والاختيال (٢) امتتح : أخذ العطاء
(٣) ساغبة : جائعة أو عطشى ، والانفاس الجرعات جمع نفس أى جرعة ، الشبم : البارد . القراح : الماء الخالص
(٤) المراغة الانثى التي لا تمنع عن نفسها وقد سميت كذلك أم جرير تشبيها لها بالاناث أو قيل سميت بذلك لانها ولدت في مراغة الابل أى مكان مرعاها . وهذا كناية عن الخسة وأنها من خدم الابل ورعاتها

فانى أنا الموت الذى هو واقع بنفسك فانظر كيف أنت مزاوله
وما أحد يابن الأتان بوائل من الموت إن الموت لاشك نائله

فأطرق جرير قليلا ثم قال : أم حزرة طالق ثلاثا إن لم أكن نقضته وزدت عليه ، فقال عبد الملك : مات فقد والله طلق أحدكما لامحالة ، فأنشد :

أنا البدر يغشى نور عينيك فالتمس بكفيك يابن القين هل أنت نائله ؟
أنا الدهر يفنى الموت والدهر خالد فحتفى بمثل الدهر شيئا يطاوله

فقال عبد الملك : فضلك والله يا أبا فراس ، وطلق عليك .

واجتمع جرير والفرزدق والأخطل فى مجلس عبد الملك فأحضر بين يديه كيسا فيه خمسمائة دينار ، وقال : ليقل كل منكم بيتا فى مدح نفسه ، فأيكم غلب فله الكيس ، فقال الفرزدق:

أنا القطران والشعراء جربى وفى القطران للجربى شفاء

وقال الأخطل :

فأن تك زق زاملة فانى أنا الطاعون ليس له دواء (١)

فقال جرير :

أنا الموت الذى آتى عليكم فليس لهارب منى نجاء

فقال عبد الملك: لعمرى إن الموت يأتى على كل شىء .

وهل بعد هذا إثارة لشياطين الشعر وتهييج لأضوائه ، وبعث لجميده ؟

ومن أمثلة ذلك ما يروى من أن عبد الملك وصفت له جارية لرجل من الأنصار ذات أدب وجمال ، فساومه فيها فامتنع واشتمت ، ثم أضعف لصاحبها الثمن وأخذها على كره منها فأعجب بها عبد الملك وأمرها بلزوم مجلسه والقيام على رأسه

(١) الزق ، السقاء من جلد . . والزاملة الباقة أو غيرها يحمل عليها

فبينما هي عنده ومعه ابناه الوليد وسليمان ، وقد أخلاهما المذاكرة ، إذ أقبل عليهما فقال : أي بيت قالته العرب أمدح ؟ فقال الوليد : قول جرير فيك :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

قال سليمان : بل قول الأخطل :

شم العرانين حتى يستقادلهم وأعظم الناس أحلاما إذا قدروا

فقالت الجارية : بل قول حسان :

يغشون حتى ما تهر كلابهم لا يسألون عن السواد المقبل

فأطرق عبدالملك ، ثم قال وأى بيت قالته العرب أرق؟

فقال الوليد قول جرير :

إن العيون التي في طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

فقال سليمان : بل قول عمر بن أبي ربيعة :

هبذا رجعها إليها يديها من يدى درعها تحل الأزارا

فقالت الجارية : بل بيت حسان :

لو يدب الحولى من ولد الذ ر عليها لأندبتها الكلوم (١)

ثم قال عبد الملك : أى بيت قالته العرب أشجع ؟ فقال الوليد قول عنترة :

إذ يتقون بي الأسنة لم أخم عنها ولكني تضايق مقدمي (٢)

فقال سليمان : بل قوله:

وأنا المنية في المواطن كلها والطعن مني سابق الآجال

---

(١) أى لو يدب الصغير من ولد الذر على جلدها لأثر فيه وجرحه . والذر : صغار النمل . وليس المراد بالحولى هنا ما أتى عليه الحول ، وإنما جعله فى صغره كالحولى من ولد الحافر والخف . وأندبتها : أثرت فيها من الندب وهو أثر الجرح . والكلوم : الجراحات

(٢) لم أخم : لم أجبن عن الأسنة ولكني تعذر موضع إقدامي من شدة الزحام فتأخرت لذلك

فقالت الجارية : بل بيت كعب بن مالك

نصل السيوف إذا قصرن بخطونا قدما ونلحقها إذا لم تلحق

فقال عبد الملك : أحسنت ، وما نرى شيئا من الاحسان إليك أبلغ من ردك إلى أهلك ، فأجمل كسوتها وأحسن صلتها وردها إلى أهلها .

ولما بلغ عبد الملك قول جرير يهجو الأخطل .

هذا ابن عمى فى دمشق خليفة لو شئت ساقكم إلى قطينا

قال مازاد ابن المراغة على أن جعلنى شرطياً له ، أما إنه لو قال : لو شاء ساقكم إلى قطينا ، لسقتهم إليه كما قال .

— ٥ —

ولقد كان الخليفة من خلفاء بنى أمية ينشد بيتا ويغيب عنه قائله فيأرق جفنه ، وينبو به مضجعه ، ويبعث فى طلب الرواة والعلماء حتى يعرف قائله ، ثم يخلع عليهم العطايا ، ويهب لهم الجوائز ، ويصلهم بأكرم الصلات .

وكان هذا من العوامل التى شجعت على رواية الشعر وحفظه وتلقى الأشعار والبحث عنها لدى عارفيها والملمين بها ... وهذه العناية البالغة من جانب الخلفاء أحيت من أشعار العرب القديمة ما أوشك الناس أن ينسوه وما قاربوا أن يغفلوه ، إذ كان الراوية يحظى من عطايا الحكام بمثل مايحظى به الشاعر .

وفى هذا الخبر الذى يرويه حماد الراوية دلالة على مبلغ ما كانوا يبذلون من عناية بالحفظ والرواية .

يقول حماد : كنت منقطعا إلى يزيد بن عبد الملك ، فكان هشام يحفون ذلك فلما أفضت الخلافة إلى هشام خفته ، فمكثت فى بيتى مدة لا أخرج إلا لمن أثق به من إخوانى سرا ، فلما لم أسمع أحدا يذكرنى سنة أمنت ، فخرجت فصليت الجمعة فاذا شرطيان يقولان : ياحماد أجب الأمير يوسف بن عمر ، فقلت فى نفسى : من هذا كنت أحذر ، وحاولت أن آتى أهلى أودعهم فلم يمكنانى ، فلما صرت إلى الأمير

يوسف رمى إلى كتابا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله هشام أمير المؤمنين ، إلى يوسف بن عمر ، أما بعد ، فاذا قرأت كتابي هذا فابعث إلى حماد الراوية من يأتيك به غير مروّع ولا متعتع (١) وادفع إليه خمسمائة دينار وحملا يسير عليه إلى دمشق . فلما صرت إلى هشام فدنوت منه قال لي : أتدري فيم بعثت إليك ؟ قلت : لا : قال : بعثت إليك لبيت خطر ببالي لم أدر قائله ، قلت : وما هو ؟ قال :

فدعوا بالصبوح يوما فجاءت ... قينة في يمينها إبريق

فقلت هذا يقوله عدي بن زيد في قصيدة له ، قال فأنشدنيها ، فأنشدته :

بكر العاذلون في وضح الصـ ... ـبح يقولون لي : ألا تستفيق ؟

ويلومون فيك يا ابنة عبد اللـ ... ـه والقلب عندكم موثوق

لست أدري إذ أكثروا العذل فيها ... أعدو يلومني أم صديق ؟

فدعوا بالصبوح يوما فجاءت ... قينة في يمينها إبريق (٢)

فدمّته على عقار كعين الديـ ... ـك صفى سلافها الراووق (٣)

مزّة قبل مزجها فاذا ما ... مزجت لذ طعمها من يذوق

وطفا فوقها فقاقيع كالدر ... صغار يثيرها التصفيق (٤)

ثم كان المزاج ماء سحاب ... لاصرى آجن ولا مطروق (٥)

فطرب هشام ، ثم قال أحسنت ، فسل حاجتك كائنة ما كانت ، قال حماد : فقلت

(١) تعتعه أكرهه في الامر حتى قلق (٢) الصبوح . شراب الصبح

(٣) الفدام ككتاب وسحاب وشداد : المصفاة ، وإبريق مفدم كمعظم ومكرم عليه . مصفاة . وفدمته وضعته عليه . والعقار الخمر سميت بذلك لمعاقرتها (ملازمتها) الدن أو لعقرها شاربها أي قيدها اياه إياه عن المشي وكعين الديك ، أي في الصفاء . والراووق المصفاة وإناء الشراب الذي يروق به الكأس .

(٤) الفقاقيع نفاخات الماء والتصفيق مزج الخمر بالماء .

(٥) الصرى : الماء يطول مكثه . وآجن : متغير اللون والطعم ، والمطروق : الذي طرقته الابل فبالت فيه وعكرته .

إحدى الجاريتين ، لجاريتين كانتا واقفتين فى خدمة الخليفة ، فقال : هما لك . ثم بت فى ضيافة الخليفة . فلما أصبحت إذا بعدة من الخدم بيد كل منهم بدرة فقال لى أحدهم . أمير المؤمنين يقرئك السلام ويقول لك : انتفع بهذا المال فأخذته والجاريتين وانصرفت .

ولقد يقول قائل : إن هذه الروايات وأمثالها مما ينسجه خيال الوضاعين وتسمو إليه آمال الطامعين . وإن ما يكتنفها من المبالغات يحيلها أو يجعلها قريبة من المستحيل ، ونحن لسنا بصدد النفى أو الإثبات ولا بسبيل البحث عن الأمكان والإحالة ، ولكنا نجزم بأن مثل هذه الصور هى فى الواقع انعكاس لما وقر فى الأذهان واستكن فى النفوس من تقدير الخلفاء والولاة لقيم الشعراء ، ومنازل الأدباء ، وجهد الرواة فيما وصلوا إليه من أخبار ووعوه من آثار ، حتى ليؤثر عن معاوية ، أنه كان يقول : اجعلوا الشعر أكبر همكم ، وأكثر آدابكم ، فلقد رأيتنى ليلة الهرير بصفين ، وقد أتيت بفرس أغر محجل ، بعيد البطن من الأرض وأنا أريد الهرب ، لشدة البلوى ، فما حملنى على الأقامة إلا أبيات عمرو بن الأطنابة :

أبت لى همتى وأبى بلائى ... وأخذى الحمد بالثمن الربيح
وإقحامى على المكروه نفسى ... وضربى هامة البطل المشيح
وقولى كلما جشأت وجاشت ... مكانك تحمدى أو تستريحى
لأدفع عن مآثر صالحات ... وأحمى بعد عن عرض صحيح

وكان عبد الملك ، يقول لبنيه : عليكم بطلب الأدب فأنكم إن احتجتم إليه كان لكم مالا ، وإن استغنيتم عنه كان لكم جمالا . وقال المؤدب ولده : إذا رويتهم شعراً فلا تروهم إلا مثل قول العجير السلولى :

يبين الجار حين يبين عنى ... ولم تأنس إلى كلاب جارى
وتظعن جارتى من جنب بيتى ... ولم تستر بستر من جدارى
وتأمن أن أطالع حين آتى ... عليها وهى واضعة الخمار

كذلك هدى آبائى قديماً توارثه النجسار عن النجار

وجلس ذات مرة فى عدة من أهل بيته وولده فقال : ليقل كل منكم أحسن شعر سمعه ، فذكروا لامرىء القيس وطرفة والأعشى وأكثروا ، فقال : أشعر من هؤلاء والله معن بن أوس حيث يقول :

وذى رحم قلمت أظفار ضغنه بحلمى عنه وهو ليس له حلم
إذا سمته وصل القرابة سامنى قطيعتها تلك السفاهة والظلم
وأسعى لكى أبنى ويهدم صالحى وليس الذى يبنى كمن شأنه الهدم
يحاول رغمى لا يحاول غيره وكالموت عندى أن يحل به رغم (١)
فما زلت فى لينى له وتعطفى عليه كما تحنو على الولد الأم
لأستل منه الضغن حتى سللته وقد كان ذا ضغن يضيق به الحلم

— ٦ —

وينبغى ألا نغفل من مظاهر عناية الخلفاء والأمراء بالأدب واللغة ، مظهرا كان له شأنه وخطره فى إنهاض الأدب وإنعاشه ، ذلك هو مجالس الخلفاء ، وما كانت تحفل به من إثارة ألوان السبق ، وفنون المنافسة بين الشعراء ، ومن تمييز وترجيح بين شعر وشعر ، ومن كثرة استحثاث الرواة على الرواية .

وكان مجلس عبد الملك بن مروان على الأخص أعمر هذه المجالس وأكثرها ذيوعا وشهرة .

* * *

وبعد : فان من يتتبع هذه العناية الفائقة يجد أنها عادت على الأدب بالنفع الجزيل ، والخير العميم . إذ حفظت تراثه ، وصانت قديمه ، وعادت على جديده بالصقل والتجويد والتهذيب .

أشهر المجامع الأدبية وأثرها

عصر بنى أمية يعد من أزهى عصور الأدب وأنضرها ، راجت فيه سوقه ، ونفقت بضاعته ، وازدادت العناية به ، واشتد الإقبال عليه ، وأصبح لصاحبه مكانة ملحوظة ، ومنزلة مرموقة . فالشاعر يجالس الخليفة وينادمه ويحظى بعطاياه وينعم بصلاته . والراوية الذى يختزن فى ذاكرته أوابد الشعر ، ويحتقب فى نفسه روائع القصيد وغرائبه ، يطلبه الخلفاء دائما لتأديب أولادهم ، وتثقيف أبنائهم ، أو ليسألوه عما غاب عنهم علمه ، أو خفى عليهم قائله .

لهذا تعلق الناس بالأدب فطلبوه ، وعظمت رغبتهم فيه فساروا فى موكبه ، وغشوا مجامعه ، ولازموا مجالسه . ولو كان المجال يتسع أمامنا لعرض آثار هذه المجامع فى تفصيل ، وإبراز صور كثيرة مما حفلت به من شعر ودرس ورواية ، لرأينا العجب العجاب ، ولكننا نكتفى بصورة موجزة عابرة لأن المقام يقتضينا الإيجاز ، والاكتفاء بالصورة المجملة عن الاسهاب والتفصيل .

كان الأدب مشرق الصفحة ، نابض الحياة ، تواتيه القوة ، ويلازمه الإبداع والإمتاع ، فى يثرب وفى مكة وفى البصرة والكوفة ودمشق . فهذه كانت الحواضر التى تحيا فيها العقول حرة طليقة ، وتجيش القلوب بالمعانى التى تثير الشعر ، وتهيج شياطينه ، وتبعث أفانينه .

— ١ —

أما مكة فهى من قديم مثابة الشعراء وكعبتهم ، لما تميزت به من قداسة تجعلها مهبط القصاد ، وكعبة الرواد ، ومقصد الحجيج ، وكانت فى عهد الأمويين زاخرة

بألوان النشاط الفكرى وفنون الحياة اللاهية . يغنى فيها المغنون ويقول الشعراء فى حرية وسعة ، دون أن يقيموا وزنا لنقد ناقد ، أو لوم لائم .

ولقد روى أن ابن عباس كان بالمسجد الحرام ، وعنده نافع بن الأزرق وناس من الخوارج يسألونه ، إذ أقبل عمر بن أبى ربيعة فى ثوبين مصبغين موردين ، حتى دخل فجلس ، فأقبل عليه ابن عباس فقال : أنشدنا ، فأنشده :

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر غداة غد أم رائح فمهجر

حتى أتى على آخرها فأقبل عليه نافع ، فقال له يا ابن عباس : إنا نضرب إليك أكباد الإبل ، نسألك عن الحرام والحلال ، فتتناقل عنا ويأتيك غلام مترف من قريش فينشدك :

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت (فيخزى) وأما بالعشى (فيخسر)

فقال ليس هكذا . قال فكيف قال ؟ قال :

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت فيضحى وأما بالعشى فيخصر

فقال نافع : ما أراك إلا قد حفظت البيت ، قال : أجل ، بل إن شئت أن أنشدك القصيدة فعلت ، قال : فانى أشاء ، فأنشده القصيدة .

فهذه صورة تمثل المجتمع الأدبى فى مكة ، وتدل فى وضوح على أنه كان عامرا بما يتناشده الشعراء فى حرية سابغة ، وانطلاق وافر .

— ٢ —

وأما المدينة . فكانت لها شهرتها الأدبية ، وذوقها الحساس ، ونقدها اللماح ، من لدن الجاهلية ـ حتى كان النابغة يقول : « دخلت المدينة وفى شعرى عهدة وخرجت منها وأنا أشعر الناس » . وجاء الإسلام وهاجر إليها الرسول صلوات الله عليه ، وكان له شعراء يناضلون عن دعوته ، ويذودون عن رسالته ، وعلى رأسهم حسان بن ثابت .

ويروى ابن عبد ربه عن أنس بن مالك أنه قال قدم علينا رسول الله (ص) المدينة ، وما فى الأنصار بيت إلا وهو يقول الشعر . قيل له : وأنت يا أبا حمزة ؟ قال : وأنا . وابن سلام الجمحى حين يتحدث عن شعراء القرى العربية (مكة والمدينة والطائف واليمامة والبحرين) يقول : أشعر هذه القرى قرية المدينة.

وكان حسان بن ثابت ينشد الشعر فى هجاء قريش خصوم الرسول (ص) وهو يقول له : قل وروح القدس معك ، والله لشعرك عليهم أشد من وقع الحسام فى غبش الظلام . ويروى أن عمر مر ذات يوم بحسان ، وهو ينشد شعره فى مسجد الرسول (ص) فقال له : أرغاء كرغاء البكر ؟ فقال حسان : دعنى من هذا يا عمر ، فو الله لقد كنت أنشد فى هذا المسجد من هو خير منك فلا يغير على شيئا .

وتتابعت الأحداث على المسلمين وقامت دولة الأمويين ، فكانت المدينة تحمل دائما لواء المعارضة للحاكمين . وعاد شعراؤها إلى ما كانوا عليه أيام الجاهلية من هجاء لاذع ، وتنابز وتقاذف ، حتى كان عبد الرحمن بن حسان يهجو معاوية هجاء قبيحا حين استلحق زيادا ، واستفحل الشر بينه وبين عبد الرحمن بن الحكم فى المدينة ، فتهاجيا وتفاحشا .

وكان للشعراء فيها مجالس ، يتناشدون فيها الشعر وينقدونه ، ويستعرضون منه مايعيبون من رديئه ويستحسنون من جيده .. يروى أن عمر بن أبى ربيعة قدم المدينة ، فاجتمع به الأحوص ونصيب وكثير ، فتحدثوا مليا وأفاضوا فى ذكر الشعراء ، فأقبل كثير على عمر ، فقال له : إنك لشاعر لولا أنك تشبب بالمرأة ثم تدعها وتشبب بنفسك ، أخبرنى ياهذا عن قولك :

ثم اسبطرت تشتد فى أثرى تسأل أهل الطواف عن عمر[1]

أراك لو وصفت بهذا هرة أهلك ألم تكن قد قبحت وأسأت وقلت الهجر

---

(١) اسبطرت : أسرعت . تشتد : تعدو

إنما توصف الحرة بالحياء والإباء والبخل والامتناع ، ألا قلت كما قال الأحوص :

أدور ولولا أن أرى أم جعفر بأبياتكم مادرت حيث أدور
وما كنت زوارا ولكن ذا الهوى وإن لم يزر لابد أن سيزور
لقد منعت معروفها أم جعفر وإنى إلى معروفها لفقير

فانكسرت نخوة عمر ودخلت الأحوص الخيلاء . فأقبل كثير على الأحوص وقال له : لقد أبطل آخرك أولك ، أخبرنى عن قولك :

فان تصلى أصلك وإن تبينى بهجر بعد وصلك لا أبالى

أما والله لو كنت حرا لباليت ولو كسر أنفك . ألا قلت كما قال نصيب :

بزينب ألمم قبل أن يرحل الركب وقل إن تمللينا فما ملك القلب

فانكسر الأحوص ودخلت نصيبا زهوة ، فلما رأى أن الكبرياء قد دخلته التفت كثير إليه وقال : وأنت يابن السوداء أخبرنى عن قولك :

أهيم بدعد ماحييت فان أمت فوا كبدى من ذا يهيم بها بعدى [1]

أهمك ويحك من يهيم بها بعدك ؟ فلما أمسك كثير أقبل عليه عمر ، فقال له : قد أنصتنا لك فاسمع ، أخبرنى عن تخيرك لنفسك وتخيرك لمن تحب حيث تقول :

ألا ليتنا ياعز من غير ريبة بعيران نرعى فى الخلاء ونعزب [2]
كلانا به عر فمن يرنا يقل على حسنها جرباء تعدى وأجرب [3]
إذا ماوردنا منهلا صاح أهله علينا فما ننفك نرمى ونضرب
وددت وبيت الله أنك بكرة هجان ، وأنى مصعب ، ثم نهرب [4]

---

(١) أنشد البيت فى مجلس عبد الملك ، فنقده وقال . الجيد أن يقول :

أهيم بدعد ما حييت فان أمت فلا صلحت دعد لذى خلة بعدى

(٢) نعزب : نبعد فى المرعى (٣) العر بالضم والفتح : الجرب

(٤) البكرة : الفاقة الفتية ، ناقة هجان : بيضاء اللون كريمة . المصعب : الفحل الذى يترك فلا يركب .

نكون بعيرى ذى غنى فيضيمنا فلا هو برعانا ولا نحن نطلب

فقد تنبيت لها ولنفسك الرق والجرب والرمى والطرد والمسخ، فأى مكروه لم تتمن لها ولنفسك ؟

وهكذا كانت المدينة تعج بالشعراء الذين يقولون فلا يبالون من سطوة حاكم ولا يرهبون قوة ظالم، وبالنقاد الذين ينقدون فيحسنون .. ومن هنا كانت عينا ثرة بالشعر، ومنبعا فياضا بالأدب، لايغيض ماؤه، ولا يحول رواؤه .

— ٣ —

وكانت البصرة مصدر انتعاش الأدب ورقيه، وتهذيب حواشيه، وكان سوقها (المربد) ميدانا من أهم ميادين المنافسة والسبق بين الشعراء ؛ فكل شاعر يعد شعره، ويجود قصيدته، ويخرج إلى المربد، ومعه رواته والمتعصبون له، يناضلون عنه، ويهيئون الجو الذى ينشد فيه . ولفحول الشعراء حلقات خاصة ينشدون فيها أشعارهم، ويفد عليهم أنصارهم، وتذاع منها قصائدهم، بما تحمل من مفاخرة بالأحساب والأنساب، وقذف للخصوم، ومهاجاة الأعداء . ويقف الآخرون للرد عليها ومناقضتها .

يروى أن جريرا والفرزدق اجتمعا فى المربد، فتنافرا وتهاجيا، وحضرهما العجـــاج والأخطل وكعب بن جعيل . وكان كل من جرير والفرزدق يلبس لباساً خاصا، ويخرج إلى المربد ويقول قصائده فى الفخر والهجـــاء، والرواة يحملون إلى كليهما ماقاله الآخر فيرد عليه .

قال أبو عبيدة : وقف جرير بالمربد وقد لبس درعا وسلاحا تاماً، وركب فرساً أعاره إياه أبو جهضم عباد بن حصين، فبلغ ذلك الفرزدق . فلبس ثياب وشى وسوارا، وقام فى مقبرة بنى حصن ينشد بجرير، والناس يسحون فيما بينهما بأشعارهما، فلما بلغ الفرزدق لباس جرير السلاح والدرع قال :

عجبت لراعى الضأن فى حطمية وفى الدرع عبد قد أصيبت مقاتله[1]

---

(١) الحطمية : الدرع منسوبة إلى حطمة بن محارب كان يعمل الدروع

ولما بلغ جريرا أن الفرزدق فى ثياب وشى قال :

لبست سلاحى و الفرزدق لبة عليها وشاحا كرّج وجلاجله[1]

ومازالا كذلك يتهاجيان ، ويقولان القصائد الطويلة الكثيرة ، حتى حج والى البصرة فهدم منازلهما بالمربد ، فقال جرير :

فما فى كتاب الله تهديم دارنا بتهديم ماخور خبيث مداخله

وبجانب هؤلاء الشعراء المتهاجين المتفاخرين طائفة أخرى من الرجاز ، يقفون فى المربد فينشدون رجزهم ، كالعجاج ورؤبة ، وأبى النجم . وهكذا كان المربد مدرسة جامعة : تهتاج فى أفنائها شياطين الشعر ، ويتصاول فحوله ، وتصطرع آساد القريض .

— ٤ —

وكانت الكوفة تعنى بالرواية ، وتهتم بالجمع وتتتبع ما قال الشعراء . ويقال إن السبب فى هذا الاهتمام ، أن المختار بن عبيد الله ، عثر فى أثناء حروبه بالعراق على أشعار مدفونة تحت القصر الأبيض ، فاستخرجها فكانت فى يد الكوفيين ، يتنفلون بها على البصريين . ويقال إن الذى دفنها النعمان بن المنذر ملك الحيرة .

وكان بين البصرة والكوفة منافسة شديدة فى العلم : ولكن شهرة البصرة كانت باللغة وعلومها من نحو وغيره ، وذلك لتبحرها فى العمران ، وقربها من البادية التى عرف أهلها بالفصاحة وصدق الحجة .

أما الكوفة فقد ذهبت شهرتها بالشعر وراويته ونقده .

وتمتاز مجامع العراق على وجه العموم بالتبريز فى علوم اللغة لشدة اعتمادهم على التحصيل والدرس ، وحاجتهم إليها لدفع فساد الملكات .

---

(١) الكرج : مايتخذ من الدمى مثل المهر يلعب عليه وهو لفظ دخيل لا أصل له فى العربية

على أن أهم مجالس الأدب وأكثرها إثارة لفنونه وأعودها عليه بالتهذيب
والصقل والإتقان والجودة . هي مجالس الخلفاء في دمشق مقر الخلافة الأمو
وما كانوا يثيرون من مناظرات ، ويهيجون من نقد ، ويفتحون من أبوا
السبق بين الشعراء .

كان لمعاوية ولع خاص بالشعر ومهاجاة الشعراء ، وكانت لعبد الملك مجالسه ال
تنشد فيها الأشعار من قديم وحديث وينتقد فيها الشعراء فلا يستثنى منهم أحد

وقد مر بنا فيما سبق من بحوث ، وسيمر بنا فيما سنتناوله من دراسات ، أمث
كثير من آثار هذه المجالس ، وخاصة مجالس عبد الملك .

* * *

وكل هـذه المجامع والمجالس الأدبية ، كان لها أروع الأثر ، في نضج الأدب
واستواء صفحته ، وإشراق ديباجته ، ورواج سوقه ، وإحياء تراثه .

النثر في العصر الأموي

تهيأ للنثر الأدبي في هذا العصر من العوامل المؤثرة ، والظواهر المخصبة ، ما أثار صفحته ، وأبهج رونقه ، وزين ديباجته .

ذلك أن العرب قد استقروا بعد اضطراب ، واجتمعوا بعد تفرق ، وتحضروا بعد بداوة ، واجتمع لهم من سلطان الملك ، وسمات الحضارة ، وثقافة الفكر ، وتنظيم الحياة ، ما جعلهم يشعرون بحاجتهم إلى كلام مهذب ، وأسلوب رشيق ، وفكرة مرتبة ، ومعنى تمتلك به النفوس ، وتجتذب الأفئدة .

ويمكن أن نجمل الأسباب التي جعلت نثر هذا العهد قوى العبارة جزل الأسلوب ، شديد الأسر ، ضخم المظهر ، لا تخونه روعة الأداء ، ولا تتخلف عنه نضارة البلاغة ، فيما يأتي :

١ ـ قامت دولة بني أمية بحد السنان ، وقوة البيان ، وكما كان السيف من أسلحتهم في توطيد الملك ، واستلاب الحكم ، والاستيلاء على شئون المسلمين ، كان البيان القوي يحاول أن يخادع الناس ، وأن ينتزع من صدورهم ما يؤمنون به ، من أحقية آل البيت ، وأن يجتذبهم إلى سياسة الأمويين ، ويخضعهم بالقول المعسول واللفظ الخلاب لسلطانهم المستحدث . وهذا أفاد النثر تهذيبا وصقلا ، وعاد عليه بكثير من الجودة وحسن البهاء ، وصفاء الرونق

٢ ـ استفاد القوم من بلاغة القرآن ، وروعة بيانه ، وسمو أسلوبه ، ومن أحاديث رسول الله (ص) في تهذيب منطقهم ، وتطور أساليبهم ، أكثر مما استفاد أسلافهم . ذلك أن هؤلاء الاسلاف شغلوا بالغزو والجهاد ومدافعة الأحداث الملة ، ومقارعة الخطوب المدلهمة ، عن حفظ القرآن وترديده واستظهار الأحاديث النبوية وترتيلها . فلم يكن أحد منهم يجد من فراغ وقته ، واتساع الفرصة أمامه ، ما يمكنه من حفظ القرآن ، بل كان قصارى ما يستطيعه أن

يحفظ آيات يؤدى بها صلاته ، ويقيم بها عبـــادته ؛ حتى كان أنس بن مالك يقول : « كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جد فى أعيننا » .

وإذا صح ماروى من أن ابن عمر مكث ثمانى سنوات يحفظ البقرة ، فلا يمكننا أن نرد ذلك إلا إلى الأحداث المطيفة ، والشواغل الصارفة ، من تمكين للدين ، ونشر للوائه ، ومجاهدة لأعدائه .

أما هؤلاء الأمويون فقد قلت لديهم الصوارف ولم تعد تشغلهم الحروب ، فانصرفوا بكل مافيهم من رغبة مستحرة ، وميول مشبوبة منهومة ، إلى كتاب الله يستظهرون آياته ، ويفهمون حكمه وعظاته ، وينصتون إلى مافيه من سحر البلاغة وروعة البيان ، وسمو التعبير ، وجمال التصوير ، وماذا يمنعهم من ذلك وقد يسر لهم ذكره ، وهيئت لهم أسباب الحصول عليه ، ثم رأو أعلام الصحابة يتصدرون لتعليم المسلمين ، وشرح ماغاب عنهم من معانى الـــكتاب ، والإفاضة فى بيان مايحمله إليهم من كريم الآداب ، وجميل العظات . فابن عباس يجلس لذلك بمكة ، تضرب إليه أكباد الإبل ، وتقطع له الصحارى والفيافى . وزيد بن ثابت بالمدينة يشرح للناس من حديث الوحى ، ويبصرهم بأحكامه ، ويثير لهم من سبل الهداية ، مايرغبهم فى العلم ، ويدعوهم إلى التفقه فى الدين ، والانتهـــال من مناهل الشريعة . وهكذا .

وأخذ الناس يعنون عناية خاصة بأحاديث رسول الله (ص) وهى من البلاغة فى الذروة والسنام . فجعلوا يتلقفونها ، ويصغون معجبين إلى لحن القوة ينساب فى كلماتها ، وإلى إشراق البيان ونصاعته وسماحته ، ينضر مبانيها .

رددوا هذه الأحاديث ، واستدلوا بها فى كل ما يعرض لهم من شأن ، أو يقع لهم من مشكلات ؛ وبدأوا يدونونها ، ويجمعون ما تفرق منها فى صدور الرواة ورؤوس الثقاة ، حتى تم لهم جمعه فى عهد عمر بن عبد العزيز .. ومن هنا طبع نثرهم بطابع القوة التى شاموا برقها ، واستنشقوا عبيرها ، من كلام رب العالمين . وآثار أفصح المرسلين .

٣ — وقد استجد الأمة من مظاهر الملك ، وانفسح لديها من آفاق الحياة ، وتهيأها من عوامل النمو والتطور ، ما يدعو إلى تهذيب اللغة ورقى الأساليب .

وإذا كانت بعض هذه المظاهر مما يمكن أن يشغل الناس عن دينهم ويصرفهم بعض الشيء عما كانوا فيه من توغل فى العبادة . فقد وجد الخلفاء والولاة أنه لا بد من تذكيرهم بخالقهم ، وتوجيههم إلى الطاعة ، وإثارة مشاعر الخوف والتقوى التى قد تنميها زخارف الدنيا ، ويغطى عليها ما تزاحم لديهم من مفاتن الحياة .

ولهذا رتب معاوية الوعاظ فى المساجد ، يذكرون الناس حين تتنابهم غفوة ، ويدعونهم إلى الصراط المستقيم حين تميل بهم هفوة . ويقصون عليهم على نظام الكتاب الكريم ما حل بغيرهم من الأمم حين جانبوا الحق ، وتنكبوا الهداية . وكان من أشهر هؤلاء الوعاظ الحسن البصرى ومحمد بن سيرين .

وكان هؤلاء يعمدون إلى الإفاضة فى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى تبصر الناس بما يسعدهم فى دنياهم وينجيهم فى أخراهم . ولا ينكر أحد ما لهذا من أثر بالغ فى تهذيب اللفظ وروعة المعنى ، ودقة الفكرة ، وقوتها . فان العظة دائما لا تقع من النفس موقعا مقبولا ، ولا تأخذ مكانها من القلب فى يسر وسماحة ، إلا حين تلبس ثوبا براقا من اللفظ الجميل والأسلوب الموثق والفكر المرتب

٤ — رأى خلفاء بنى أمية أن الناس قد بدا لهم الحنق على هذا السلطان الذى اغتصبوه ، ويتردد فى نفوسهم التمرد من أجل هذا الملك الذى سلبوه ، فارادوا أن يصرفوهم عن مثل هذه الأفكار برواية ما ترك العرب من شعر ونثر ، بعد أن كادت الحروب والغزوات والإنصراف إلى الدين الجديد تقطع ما بينهم وبين ذلك من الصلات . وقد بالغوا فى الإلتفات إلى هذه الناحية يستخرجون كنوزها ، ويظهرون نفائسها ، ويحيون ما كاد أن يندرس من أعلامها ، وأخذوا يشجعون الرواة ، ويغدقون عليهم سنى الجوائز ، وعظيم الهبات ، ويوسعون لهم فى مجالسهم ويؤثرونهم بعطفهم . والناس يستمعون إلى هذه الأشعار فتستولى على نفوسهم

لاغتها ، ويأخذ بألبابهم رونقها ، وينطبع فى أذهانهم ماتتميز به من الجزالة وشد
لأسر ، وضخامة اللفظ وهذا سر مانلحه فى أدب هذا العصر من قوة وفخولة و
صالة الملكة ، واقتدار بالغ على الأداء والتصوير .

٥ — وكان لابد أن يكون لاختلاط العرب بغيرهم وامتزاج الثقافات واتصـ
لمعارف أثر قوى فى تهذيب ألفاظهم وترتيب أفكارهم وصقل مداركهم .

ومن هنا رأينا نثرا لايعتمد على الفكرة الطارئة ، ولا اللمحة العارضة ، و
لخاطر العابر ، إنما يعتمد على تسلسل الأفكار وقوة الحجة واتزان المنطق .

هذه هى العوامل أو بعض العوامل التى أثرت فى النثر الأدبى ، وجعلته مثر
لصفحة ، قوى الديباجة ، لامع الرونق . ولما كان مظهره إذ ذاك ينحصر
لخطابة والكتابة ، آثرنا أن نتكلم على كل نوع منه على حدة :

الخطابة الاموية

عوامل نهوضها :

كل الظواهر السياسية والاجتماعية التى استجدت فى هذا العصر ساعدت على رقى الخطابة وازدهارها ، وارتفاع شأنها ، وتنوع أغراضها ، ونضج أساليبها ، واستواء طرائقها :

١ — فالامة إذ ذاك تشعبت إلى أحزاب وطوائف ، وفرق وجماعات ، تتقارع بالكلام ، وتتصاول بالحجة ، وتتراشق بالتهم ، وتتدافع بالرأى . ففيهم الامويون والزبيريون والشيعة والخوارج . ولكل جماعة نشاط دائب ، وحركة مستمرة ، وقول تردده البيئات ، وتتناقله المجامع ، وخطباء تحمى أنوفهم ، وتهيج نفوسهم ، لدفع الرأى بالرأى ، ومقارعة الحجة بالحجة .

أليست هذه المقامات مما يمد الخطابة بالمعين الفياض ، ويعود عليها بالتهذيب والصقل ، ويخلع عليها شبابا وقوة ، فوق أنها من أقوى الدواعى إليها ، لتأييد مذهب كل فريق ، والدفاع عن رأى كل جماعة ، والرد على ما يدعيه الخصوم من كل حزب ؟ .

٢ — ولقد كان لما فطروا عليه من قوة الملكات ، واستكمال أداة البيان ، وهم عرب مفطورون على الفصاحة ، مطبوعون على الخطابة ، لا تعوزهم الجرأة على اقتحام أشد مواقفها ، كان لذلك أثره فى احتفاظ الخطابة بما كان لها من قوة ومكانة قبل ذلك .

ولقد نضجت العقول فى هذا العصر ، وتهذبت الملكات ، وأسلست سبل الكلام ، وانقادت أزمة البيان ، بما تهيأ لهم من ثقافة أدبية أمدهم بها الكتاب والسنة ، وأتاحها لهم الفتح والاختلاط ، فأصبح الخطيب يستطيع أن يجد من

زاخر المعانى ، ومتنوع الأغراض ، ماينطلق به لسانه ، ويفيض به بيانه ، دون أن يخشى حصرا ، أو يخاف حصرا وانقطاعا .

٣ — وقد كان للحرية السابغة ، التى أتيحت لهم فى هذا العصر ، أثرها البالغ فى نهوض الخطابة وتطورها .. فالخطيب يستطيع أن يعبر عما يتردد فى نفسه ، وينطوى عليه فؤاده ، من رأى أو مذهب ، دون أن يخشى ظلم وال أو اضطهاد حاكم ، أو صولة ذى سلطان . وأساس هذه الحرية . ماالسته معاوية من تسامح وحلم وإغضاء ، إزاء خصومه ، حتى كان يجابه أقبح المجابهة ، فيغضى ويحلم . ومما يؤثر عنه فى ذلك أن رجلا شهد أمامه شهادة لم ترق فى نظره ، فقال له معاوية : كذبت ، فقال له : الكاذب والله متزمل فى ثيابك !! فتبسم معاوية ولم يأخذه غضب عليه ، بل قال : هذا جزاء من عجل .

هذه هى الحرية التى تزدهر فى ظلالها الخطابة ، ويصول فيها فحول البلغاء .

وإذا كان بعض الخلفاء قد ضاق صدرا بهذه الحرية ، كما أثر عن عبد الملك أنه اضطر أن يقول وهو على المنبر لمن قال له : اتق الله : « من قال لى اتق الله بعد يومى هذا ضربت عنقه » . فانهم لم يستطيعوا حبس الألسنة ، أو تقييد الحرية ، التى انطبع عليها العرب .

٤ — وكانت قوة العقيدة التى تتملك النفوس ، وتستقر فى أعماق القلوب ؛ دافعة إلى أن يجهر صاحب الرأى برأيه ، وبما عنده من فكرة ومذهب : ويستميت فى سبيل إعلان فكرته ، مهما تهدده من بطش ، أو ناله من إيذاء .. بل إن بعضهم كان يندفع فى مواجهة ذى السلطان بما يكره ، وإن جر عليه ذلك الحتف والهلاك يروى أنه لما نعى الحسين فى الكوفة نادى واليها ابن زياد : إلى الصلاة الجامعة ، وصعد إلى المنبر ، وخطب فقال : « الحمد لله الذى أظهر الحق وأهله ، ونصر أمير أمير المؤمنين يزيد بن معاوية وحزبه ، وقتل الكذاب ابن الكذاب الحسين بن على وشيعته » ، فما أتم هذه الجملة حتى وثب له من جانب المسجد شيخ ضرير هو عبد الله بن عفيف الأزدى الذى ذهبت إحدى عينيه يوم الجمل ، وذهبت عينه

الأخرى يوم صفين ـ وصاح بابن زياد قائلا : يابن مرجانة ! ! أتقتل أبناء النبيين وتقوم على المنبر مقام الصديقين ؟ إنما الكذاب أنت وأبوك ، والذى ولاك وأبوه » ، ولم يطلع عليه الصباح إلا وهو مصلوب .

فان ما مردوا عليه من الحرية ، وما ألفوه من التحرر والانطـــلاق ، وما استكن فى قلوبهم من قوة العقيدة وصدق الايمان ، دفع هذا العربى إلى أن يثور على الوالى ، وهو فى نشوة نصره ، وغرور ظفره .

وكان للخوارج فى هذا المجال مواطن مأثورة ، ومواقف مشهورة ، تدل على ماكان لقوة العقيدة من أثر فيما يقولون .

٥ ـ ولقد شعر الناس إذ ذاك بشدة الحاجة إلى الخطابة ، فأخذوا يربون أبناءهم على بلاغة الكلام ، ويمودونهم مواقف الخطابة ، ويحاولون طبع ألسنتهم على فصاحة القول ، وتجلية الرأى ، وسوق الحجة ؛ حتى يكونوا عند الحاجة ، ألسنة ناطقة ، وأسنة مدافعة .

كل هذه العوامل ، قد هيأت للخطابة من نباهة الشأن ، وعلو القدر ، وسمو المنزلة ، ماجعلها تؤدى مهمتها ، وتقوم برسالتها .

موضوعاتها :

ولقد زادت أغراض الخطابة ، بما استجد فى شئون الدين والسياسة والاجتماع فاستعملت فى الدعاية السياسية عند الفرق والاحزاب ، وفى الجدل الدينى عند الخوارج والشيعة وغيرهم ، وفى المناقضات والمفاخرات والمحاورات التى كانت تقوم على العصبيات ، وكانت أداة الخلفاء والولاة فى الوعد الوعيد والانذار ، هذا إلى جانب أغراضها القديمة : من وصية ونصيحة وتحريض على القتال وتهنئة بنصر ؛ كما ظلت مظهرا دينيا يتجلى فى الجمعة والعيدين ومواسم الحج .

خصائص الخطابة الأموية :

نزعتان قويتان كانتا تسودان فى هذا العصر :

١ — النزعة السياسية : وتمتلك طوائف الحكام ، وتستولى على نفوس أرباب السلطان . فقد وقر فى أنفسهم أنهم أحق بسياسة هذه الأمة ، وأولى بحكمها . ومن هنا كانت تبدو فى خطابتهم النزعة السياسية ، ويغلب عليها التحرر من الرسوم الدينية ، فيكثر فيها الاستشهاد بالشعر ، ويقل الاقتباس من القرآن الكريم ، وربما خلا بعضهم ، فترك الحمد فى أول الخطبة ، كما صنع زياد فى خطبته البتراء ، وهذا النوع من الخطب السياسية كان يغلب عليه ضخامة اللفظ ، وقوة الأسر ، والعنف فى الخطاب ، والمبالغة فى الوعيد والتهديد ، والإسراف فى السب والشتم ، حتى لقد اتخذ معاوية سنة سيئة ، هى سب (على) على المنابر فى خطب الجمعة ، وظلت تلك السنة مرعية ، حتى أبطلها الخليفة الورع : عمر بن عبد العزيز ، وجعل مكانها قوله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون » .

٢ — النزعة الدينية : وتتجلى واضحة فى خطب الجماعات التى تناوئ الخلفاء ، وترى أن بنى أمية لا يصلحون لقيادة الأمة ، ولا لحكم المسلمين . وتتميز خطابة هؤلاء بالتزام الحمد فى أولها ، والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ، وكثرة الاستشهاد بآيات الكتاب الكريم والاقتباس منه ، حتى إن بعضها كان كله اقتباسا منه كما خطب مصعب بن الزبير ، فلم يزد على قوله : « بسم الله الرحمن الرحيم ، طسم تلك آيات الكتاب المبين . نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ، إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا ، يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم ، إنه كان من المفسدين » وأشار بيده نحو الشام — ونريد أن نمن على

الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين — وأشار بيده نحو الحجاز — ونمكن لهم فى الأرض، ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون — وأشار بيده نحو العراق — »

كما يشيع فى هذه الخطب التحذير من الدنيا وغرورها ، والتخويف من الآخرة وأهوالها ، ونحو ذلك من ألوان التأثير الدينى الذى تتطامن له النفوس ، وتخبت القلوب ، وترق المشاعر .

وهذه الخطب ذات النزعة الدينية ، هى فى الواقع خطب سياسية ، تهدف إلى تغيير الأوضاع ، وقلب الأنظمة ، ومناوأة الحاكمين . وإنما وسمت بهذه السمة ، لأنها تتشح ببردة الدين ، وتصطبغ بصبغته ، للتأثير على النفوس ، والوصول إلى الأفئدة ، ولأنها صادرة من أناس لهم نزعات دينية قوية ، متمكنة من نفوسهم ، ولهم رسالة خاصة يعملون على تحقيقها .

* * *

هذا وقد بقيت للخطابة عاداتها القديمة ، من قيام الخطيب على نشز من الأرض يشرف منه على السامعين ؛ ولهذا اتخذت المنابر فى بيوت الله ، ومن اعتمادهم على شىء فى أيديهم ، حتى كان عبد الملك بن مروان يقول : لو ألقيت الخيزرانة من يدى لذهب شطر كلامى . ولقد أراد معاوية سحبان بن وائل على الخطابة ، فلم ينطق حتى أتوه بمخصرة ؛ فعجمها بيده ، فلم تعجبه ، فأتوه بمخصرته من بيته ، فخطب بها .

وكان الخطيب يخطب قائما ، حتى جاء الوليد بن عبد الملك ، فخطب جالسا ، وأتبعه فى ذلك من جاء بعده . وربما دفعه إلى ذلك تهيبه من مواقف الخطابة ، إذ كان كثير اللحن ، ضعيف الملكة ، يخشى أن يطالع الناس بلحنه ، وعى لسانه ، حتى إنه أناب عنه من يخطب الناس الجمعة . وكان من سنة الخلفاء أن يخطبوا الناس بأنفسهم يوم الجمعة .

وظل للخطابة كذلك ما كانوا يشترطونه فى الخطيب من حسن السمت ، وجمال المظهر ، ورباطة الجأش ، وثبات الجنان ، وجهارة الصوت ، والرياسة فى الجماعة ، إلى غير ذلك من شروط الخطيب .

أشهر الخطباء :

وقد نبغ فى الخطابة الكثير من البلغاء والفصحاء والمقاول المصاقع .

فمن الأمويين: معاوية ، وعبد الملك ، وسليمان بن عبد الملك ، وعمر بن عبد العزيز ..ومن ولاتهم : زياد ، والحجاج ، وقتيبة بن مسلم ، وخالد بن عبد الله القسرى ، والمهلب بن أبى صفرة .

ومن العلويين : الحسين بن على ، وحفيده زيد .

ومن الخوارج: عمران بن حطان ، وقطرى بن الفجاءة ، وأبو حمزة الإباضى .

وكان إلى جانب هؤلاء: عبد الله بن الزبير ، وأخوه مصعب .. ومن رؤساء القبائل : صعصعة بن صوحان ، وسحبان بن وائل .

نماذجها :

— ١ —

خطبة معاوية بالمدينة عام الجماعة :

قدم معاوية عام الجماعة (سنة ٤١ هـ) ، فتلقاه رجال قريش فقالوا : الحمد لله الذى أعز نصرك ، وأعلى كعبك ، فمارد عليهم حتى صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

«أما بعد ، فانى والله ما وليتها [1] بمحبة علمتها منكم ، ولا مسرة بولايتى ، ولكنى جالدتكم بسيفى هذا مجالدة ؛ ولقد رضت [2] لكم نفسى على عمل ابن [3] أبى قحافة ، وأردتها على عمل عمر ، فنفرت من ذلك نفارا شديدا ، وأردتها على سنيات [4] عثمان ، فابت على فسلكت بها طريقا لى ولكم فيه منفعة : مؤاكلة حسنة ، ومشاربة

---

(١) أى الخلافة .

(٢) من راض المهر : إذا ذلله .

(٣) هو أبو بكر الصديق .

(٤) سنية : مصغر سنة ، والمراد حكم عثمان .

جميلة ، فان لم تجدوني خيركم فانى خير لكم ولاية، والله لأحمل السيف على من لا سيف له . . وإن لم يكن منكم إلا ما يستثنى به القائل بلسانه ، فقد جعلت ذلك له دبر أذنى (١) ونحت قدمى ، وإن لم تجدونى أقوم بحقكم كله فاقبلوا منى بعضه ، فان أتاكم منى خير فاقبلوه ، فان السيل إذا جاد أثرى ، وإذا قل أغنى ، وإياكم والفتنة ، فانها تفسد المعيشة وتكدر النعمة » .

- ٢ -

خطبة عبد الله بن الزبير لما بلغه قتل أخيه مصعب :

لما قتل عبد الملك بن مروان مصعب بن الزبير (سنة ٧١ هـ) وانتهى خبر مقتله إلى عبد الله بن الزبير ، أضرب عن ذكره أياما . حتى تحدث به إلى مكة فى الطريق . ثم صعد المنبر فجلس عليه مليا لا يتكلم ، والكآبة على وجهه ، وجبينه يرشح عرقا . فقال رجل من قريش لرجل إلى جانبه : مال لا يتكلم ؟ أتراه يهاب المنطق ؟ فوالله إنه للبيب الخطباء ، قال : لعله يريد أن يذكر مقتل مصعب سيد العرب ، فيشتد ذلك عليه ، وغير ملوم . . ثم تكلم فقال :

« الحمد لله الذى له الخلق والأمر ، وملك الدنيا والآخرة ، يؤتى الملك من يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء .

أما بعد : فانه لم يعز الله من كان الباطل معه ، وإن كان معه الانام طرا (٢) . ولم يذل من كان الحق معه ، وإن كان مفردا ضعيفا . . ألا وإنه قد أتانا خبر من العراق ، فساءنا وسرنا : أتانا أن مصعبا قتل رحمة الله عليه ومغفرته ، فأما الذى أحزننا من ذلك ، فان لفراق الحميم لذعة ولوعة يجدها حميمه عند المصيبة ، ثم يرعوى من بعد ذو الرأى والدين إلى جميل الصبر ، وكريم العزاء . وأما الذى

---

(١) جعل كلامك دبر أذنه : لم يصغ اليه ولم يعرج عليه .

(٢) طرا : جميعا

سرنا منه ، فانا قد علمنا أن قتله شهادة له ، وأنه عز وجل جاعل لنا وله فى ذلك الخيرة إن شاء الله تعالى .

أسلمه الطغام [١] ، الصم الآذان ، أهل العراق ، إسلام النعم المخطمة [٢] . وباعوه بأقل من الثمن الذى كانوا يأخذون منه . فان يقتل فقد قتل أبوه وعمه وأخوه [٣] . وكانوا الخيار الصالحين .

إنا والله لانموت حتف آنافنا [٤] ، ولكن قعصا [٥] بالرماح ، وموتا تحت ظلال السيوف ، وليس كما يموت بنو مروان ، والله ماقتل منهم رجل فى زحف

---

(١) الطغام : الأوغاد . (٢) خطم البعير بالخطام : جعله على أنفه ، والخطام ككتاب : ماوضع فى أنف البعير ليقتاد به . (٣) بعد أن اعتزل الزبير بن العوام أصحاب الجمل ، انصرف إلى وادى السباع ، وقد تبعه عمرو بن جرموز فقتله فى الصلاة . ويعنى بعمه عبد الرحمن بن العوام بن خويلد ، وقد استشهد يوم اليرموك . وفى رواية : « وابن عمه » ، ويعنى به عبد الله بن عبد الرحمن بن العوام . وقد قتل يوم الدار . وأما أخوه فهو المنذر بن الزبير . وذلك أن جيش يزيد بعد أن أوقع باهل المدينة فى وقعة الحرة ، سار إلى مكة لغزو عبد الله بن الزبير ، فقال لأخيه المنذر : ماهذا الأمر ولدفع هؤلاء القوم غيرى وغيرك — وكان أخوه المنذر ممن شهد الحرة ثم لحق به — فجرد اليهم أخاه فى الناس : فقاتلهم ساعة قتالا شديدا ؛ ثم إن رجلا من أهل الشام دعا المنذر إلى المبارزة ، فخرج إليه ، فضرب كل واحد منهما صاحبه ضربة خر صاحبه لها ميتا : وكان مقتله سنة ٦٤ هـ .

(٤) الحتف : الموت ، ويقال : مات حتف أنفه : أى على فراشه من غير قتل ولا ضرب ولا غرق ولا حرق ، وخص الأنف لأنه أراد أن روحه تخرج من أنفه بتتابع نفسه أو لأنهم كانوا يتخيلون ان المريض يخرج روحه من أنفه والجريح من جراحته .

(٥) القعص : الموت السريع ، ومات قعصا : أصابته ضربة أو رمية فمات مكانه ، وفى رواية : « إنا والله مانموت حيجا كميتة آل أبى العاص ، والحيج كسبب =

في جاهلية ولا إسلام قط ، ألا وإنما الدنيا عارية [1] من الملك القهار الذي لا يزول سلطانه ، ولا يبيد ملكه ، فان تقبل الدنيا علي لم آخذها أخذ الأشر [2] البطر ، وإن تدبر عني لم أبك عليها بكاء الخرق المهين [3] ، أقول قولي هذا ، وأستغفر الله لي ولكم » ... ثم نزل .

— ٣ —

خطبة عبد الملك بن مروان لما دخل الكوفة ، بعد قتل مصعب :

دخل عبد الملك بن مروان الكوفة ، بعد قتل مصعب بن الزبير ، فصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

« أيها الناس : إن الحرب صعبة مرة ، وإن السلم أمن ومسرة ، وقد زبنتنا الحرب وزبناها [4] ، فعرفناها وألفناها ، فنحن بنوها ، وهي أمنا .

= انتفاخ بطن البعير من أكل الماء العرفج (كجعفر) وربما قتله ذلك ، يعرض بني مروان ، لكثرة أكلهم وإسرافهم في ملاذ الدنيا وأنهم يموتون بالتخمة .

(١) العارية وتخفف : الشيء المستعار (٢) الاشر : البطر

(٣) الخرق وصف من الخرق كسبب : وهو الدهش من خوف أو حياء ، أو أن يبهت فاتحا عينيه ينظر . والمهين الحقير . ويروى . « بكاء الخرف المهتر » والخرف بفتح فكسر : من فسد عقله في الكبر ، والمهتر : من ذهب عقله من كبر أو مرض أو حزن ، من الهتر بضم الهاء وقد أهتر بالبناء للفاعل فهو مهتر « بضم الميم وفتح التاء » وقد قيل أهتر بالبناء للمجهول .

(٤) أي دفعتنا ودفعناها ، والزبن : الدفع ومنه اشتقاق الزبانية « جمع زبنية أو زبنى بكسر الزاي وسكون الباء » لأنهم يدفعون أهل النار إلى النار ، ومنه ايضا حرب زبون بفتح الزاي .

أيها الناس : فاستقيموا على سبل الهدى ، ودعوا الأهواء المردية ، وتجنبوا فراق جماعات المسلمين ، ولا تكلفونا أعمال المهاجرين الأولين ، وأنتم لا تعملون أعمالهم ، ولا أظنكم تزدادون بعد الموعظة إلا شرا ، ولن تزداد بعد الإعذار إليكم والحجة عليكم إلا عقوبة ، فمن شاء منكم أن يعود بعد لمثلها فليعد ، فإنما مثلى ومثلكم كما قال قيس بن رفاعة الأنصارى :

من يصل نارى بلا ذنب ولا ترة ... يصل بنار كريم غير غدار[1]

أنا النذير لكم منى مجاهرة ... كى لا ألام على نهى وإنذار

فان عصيتم مقالى اليوم فاعترفوا ... أن سوف تلقون خزيا ظاهر العار

لترجعن أحاديثا ملعنة ... لها المقيم ولها المدلج السارى[2]

من كان فى نفسه حوجاء يطلبها ... عندى فانى له رهن باصحار[3]

أقيم عوجته إن كان ذا عوج ... كما يقوم قدح النبعة البارى[4]

وصاحب الوتر ليس الدهر مدركه ... عندى ، وإنى لدراك بأوتار

---

(١) الترة والوتر : الثأر .

(٢) أدلج : سار من أول الليل ؛ فان سار من آخره فقد ادلج بالتشديد ، والسارى : السائر بالليل .

(٣) الحوجاء : الحاجة ، وقوله : باصحار أى لا أستتر عنه ولا أمتنع فى الأماكن الحصينة ، من أصحر القوم : برزوا إلى الصحراء

(٤) العوج بفتح العين : فى كل ما كان منتصبا مثل الإنسان والعصا والعود وشبهه ، والعوج بالكسر : ما كان فى بساط أو أرض أو معاش أو دين وقيل بالفتح مصدر ، وبالكسر اسم منه . والقدح : السهم قبل أن يراش وينصل وجمعه قداح ، والنبعة واحدة النبع وهو شجر القسى والسهام .

خطبة زياد البتراء :

وقدم زياد ابن أبيه البصرة ، سنة ٤٥ هـ ، واليا لمعاوية بن أبي سفيان ، والفسق بها كثير فاش ظاهر ، فخطب خطبة بتراء لم يحمد الله فيها ، قال :

أما بعد : فان الجهالة الجهلاء[1] ، والضلالة العمياء ، والغي الموفي بأهله على النار ، حاقبه سفهاؤكم ، ويشتمل عليه حلماؤكم[2] ، من الأمور العظام ينبت فيها الصغير ، ولا يتحاشى عنها الكبير ؛ كأنكم لم تقرءوا كتاب الله ، ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته ، والعذاب الأليم لأهل معصيته ، في الزمن السرمدي[3] الذي لا يزول

أتكونون كمن طرفت[4] عينيه الدنيا ، وسدت مسامعه الشهوات ، واختار الفانية على الباقية . ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تسبقوا إليه : من تركك الضعيف يقهر ويؤخذ ماله . هذه المواخير[5] المنصوبة ؛ والضعيفة المسلوبة في النهار المبصر ، والعدد غير قليل . ألم يكن منكم نهاة[6] تمنع الغواة عن دلج[7] الليل وغارة النهار ؟ قربتم القرابة . وباعدتم الدين ! تعتذرون بغير العذر ! وتغضون على الخماص . كل امرىء منكم يذب عن سفيهه صنيع من لا يخاف عاقبة ، ولا يرجو معادا . إما أنتم بالحلماء . ولقد اتبعتم

---

(١) هذا الوصف توكيد للمبالغة ، كقولهم ليلة ليلاء

(٢) الحلماء : العقلاء (٣) السرمدي : الدائم .

(٤) طرف بصره : أطبق أحد جفنيه على الآخر ، وطرفه عنه كضربه : صرفه ورده . (٥) المواخير جمع ماخور : وهو بيت الريبة .

(٦) نهاة جمع ناه ، وغواة جمع غاو . (٧) الدلج : السير من أول الليل .

السفهاء ، فلم يزل بكم ما ترون من قيامكم دونهم ، حتى انتهكوا حرم[1] الاسلام ، ثم أطرقوا وراءكم كنوسا[2] فى مكانس الريب . حرام على الطعام والشراب ، حتى أسويها بالأرض هدما وإحراقا .

إنى رأيت آخر هـــذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله : لين فى غير ضعف ، وشدة فى غير عنف . وإنى أقسم بالله لآخذن الولى بالمولى[3] ، والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدبر ، والمطيع بالعاصى ، والصحيح منكم فى نفسه بالسقيم ، حتى يلقى الرجل منكم أخاه ، فيقول « انج سعد فقد هلك سعيد[4] » ، أو تستقيم لى قناتكم .

إن كذبة الأمير بلقاء[5] مشهورة . فاذا تعلقتم على بكذبة فقد حللت لكم معصيتى[6] فاذا سمعتموها منى فاغمزوها (٧) فى ، واعلموا أن عندى أمثالها .

---

(١) الحرم جمع حرمة : وهى مالا يحل انتهاكه ، روى الشعبى قال : « لما خطب زياد خطبته البتراء بالبصرة ونزل ، سمع تلك الليلة أصوات الناس يتحارسون ، فقال : ما هذا ؟ : قالوا : إن البلد مفتون ، وإن المرأة من أهل المصر لتأخذها الفتيان الفساق ؛ فيقال لها : نادى ثلاثة أصوات ، فان أجابك أحد ، وإلا فلا لوم علينا فيما نصنع !

(٢) كنوس جمع كانس : أى مستتر كجلوس جمع جالس ، وأصله من كنس الظبى كضرب : دخل فى كناسه « ككتاب » وهو مستتره من الشجر ، ومكانس الريب : مكامنها المستترة جمع مكنس كمجلس . (٣) الولى : السيد ، والمولى هنا : العبد

(٤) سعد وسعيد هما ابنا ضبة بن أد ، خرجا فى طلب إبل لأبيهما فوجدها سعد فردها وقتل سعيد فكان ضبة إذا رأى سوادا تحت الليل قال سعد أم سعيد ؟

(٥) من البلق بالتحريك وهـــو ارتفاع التحجيل فى الفرس إلى الفخذين والتحجيل : بياض فى قوائم الفرس ، والفرس البلقاء مشهورة لتميزها عما سواها ببلقها . (٦) فى تاريخ الطبرى : « قال الشعبى فوالله ما تعلقنا عليه بكذبة ولا وعدنا خيرا ولا شرا إلا أنفذه » (٧) اى عدوها من عيوبى ، واغتمزه طعن عليه .

من نقب منكم عليه فانا ضامن لما ذهب منه (١) . فاياى ودلج الليل ، فانى لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه ، وقد أجلتكم فى ذلك بمقدار ما يأتى الخبر الكوفة ويرجع إليكم . وإياى ودعوى (٢) الجاهلية ، فانى لا أجد أحدا دعا بها إلا قطعت لسانه .

وقد أحدثتم أحداثا لم تكن ، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة : فمن غرق قوما غرقناه ، ومن أحرق قوما أحرقناه ، ومن نقب بيتا نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبرا دفناه حيا فيه . فكفوا عنى أيديكم وألسنتكم ، أكفف عنكم يدى ولسانى ، ولا تظهر من أحد منكم ريبة بخلاف (٣) ما عليه عامتكم ، إلا ضربت عنقه .

وقد كانت بينى وبين أقوام إحن (٤) ، فجعلت ذلك دبر (٥) أذنى ، وتحت قدمى ، فمن كان منكم محسنا فليزدد إحسانا ، ومن كان منكم مسيئا فلينزع عن إساءته . إنى لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغضى لم أكشف له قناعا ، ولم أهتك له سترا ، حتى يبدى لى صفحته (٦) ؛ فاذا فعل ذلك لم أناظره ، فاستأنفوا أموركم ،

---

(١) فى تاريخ الطبرى : « وكان زياد أول من شد أمر السلطان ؛ وأكد الملك لمعاوية ، وألزم الناس الطاعة ، وتقدم فى العقوبة وجرد السيف بالظنة وعاقب على الشبهة وخافه الناس فى سلطانه خوفا شديدا حتى أمن الناس بعضهم بعضا حتى كان الشىء يسقط من الرجل أو من المراة فلا يعرض له أحد حتى يأتيه صاحبه فيأخذه وتبيت المرأة فلا تغلق عليها بابها ، وكان يقول لو ضاع حبل بينى وبين خراسان علمت من أخذه » (٢) قولهم : يالفلان ، والغرض : مناصرة العصبية .

(٣) أى تخالف ما اجتمع عليه عامة القوم . (٤) جمع إحنة : وهى الحقد والضغينة . (٥) أى خلف أذنى ، وقد اقتبسها من كلام معاوية .

(٦) أى حتى يجاهرنى بالعداوة

وأعينوا على أنفسكم ، فرب مبتئس بقدومنا سيسر ، ومسرور بقدومنا سيبتئس .

أيها الناس : إنا أصبحنا لكم ساسة ، وعنكم ذادة [١] : نسوسكم بسلطان الله الذى أعطانا ، ونذود عنكم بفىء الله الذى خولنا [٢] ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل فيما ولينا ، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا ، واعلموا أنى مهما قصرت عنه فلن أقصر عن ثلاث : لست محجبا عن طالب حاجة منكم ولو أتانى طارقا بليل ، ولا حابسا عطاء ولا رزقا عن إبانه [٣] ، ولا مجمرا [٤] لكم بعثا .

فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم ، فانهم ساستكم المؤدبون لكم ، وكهفكم الذى إليه تأوون ؛ ومتى يصلحوا تصلحوا ، ولا تشربوا قلوبكم بغضهم ، فيشتد لذلك غيظكم ، ويطول له حزنكم ، ولا تدركوا له حاجتكم ، مع أنه لو استجيب لكم فيهم لكان شرا لكم ... أسأل الله أن يعين كلا على كل ، وإذا رأيتمونى أنفذ فيكم الأمر فأنفذوه على أذلاله [٥] ، وأيم الله إن لى فيكم لصرعى كثيرة ؛ فليحذر كل امرىء منكم أن يكون من صرعاى .

فقام اليه عبد الله بن الأهتم فقال : « أشهد أيها الأمير لقد أوتيت الحكمة وفصل الخطاب ، فقال له : « كذبت ، ذاك نبى الله داود صلوات الله عليه ، فقام الأحنف بن قيس فقال : « إنما الثناء بعد البلاء ، والحمد بعد العطاء ، وإنا لن نثنى

---

(١) جمع ذائد أى مدافع (٢) خولنا : ملكنا ، والفىء : ما كان شمسا فينسخه الظل ، والخراج ـ أى ندفع عنكم بظل الله ونعمته التى وهبنا ، أو ندفع عنكم بما صار فى أيدينا من أموال الخراج

(٣) اى وقته وموعده (٤) جمر الجند : حبسهم فى ارض العدو ولم يرجعهم

(٥) أى على وجوهه وطرقه جمع ذل بالكسر ، وذل الطريق محجته ، وأمور الله جارية على أذلالها : أى مجاريها

حتى نبتلى ، فقال له زياد : صدقت . فقام أبو بلال مرداس [1] بن أدية وهو يهمس ويقول : أنبأنا الله بغير ما قلت ، قال الله تعالى: « وإبراهيم الذى وفى ، ألا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للانسان إلا ما سعى » . وأنت تزعم أنك تأخذ البرىء بالسقيم ، والمطيع بالعاصى ، والمقبل بالمدبر ، فسمعها زياد فقال : « إنا لا نبلغ مانريد فيك وفى أصحابك حتى نخوض إليكم الباطل خوضا » .

— ٥ —

من خطبة لأبى حمزة الشارى .

وبلغ أبا حمزة [2] الشارى أن أهل المدينة يعيبون أصحابه ، بحداثة أسنانهم وخفة أحلامهم ، فصعد المنبر ، وخطبهم خطبة منها :

وقد بلغنى أنكم تنقصون أصحابى ! قلتم هم شباب أحداث وأعراب جفاة ؛ ويحكم ياأهل المدينة ! وهل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله المذكورون فى الخير إلا شبابا أحداثا ؟ أما والله إنى لعالم بتثبيطكم فيما يضركم فى معادكم ، ولولا اشتغالى بغيركم عنكم ماتركت الأخذ فوق أيديكم .

شباب والله مكتهلون [3] فى شبابهم ، غضيضة عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن

---

(١) هو من رؤساء الخوارج .

(٢) هو أبو حمزة المختار بن عوف الأزدى السلمى من أهل البصرة ، وهو من رؤساء الخوارج — ويسمون الشراة كقضاة جمع شار كقاض ، من شرى يشرى كرمى أى باع — سموا بذلك لقولهم شرينا أنفسنا فى طاعة الله اى بعناها ووهبناها اخذا من قوله تعالى « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله » ، أو لقولهم شرينا الاخرة بالدنيا ، اى اشتريناها . وقد قاتل أهل المدينة ودخلها سنة ١٣٠ هـ

(٣) اى أحرزوا رزانة الكهول وسداد رأيهم

الباطل أرجلهم ، أنضاء [١] عبادة ، وأطلاح [٢] سهر ، باعوا أنفسا تموت غدا بأنفس لاتموت أبدا ، قد نظر الله اليهم فى جوف الليل ، منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن ، كلما مر أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقا إليها ، وإذا مر بآية من ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه ، قد أكلت الارض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم ، ووصلوا كلال [٣] الليل بكلال النهار ، مصفرة ألوانهم ، ناحلة أجسامهم ، من طول القيام ، وكثرة الصيام ، مستقلون لذلك فى جنب الله ، موفون بعهد الله ، منجزون لوعد الله

حتى إذا رأوا سهام العدو وقد فوقت [٤] ، ورماحهم وقد أشرعت [٥] ، وسيوفهم وقد انتضيت [٦] ، وبرقت الكتيبة ورعدت بصواعق الموت . استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله ، ولم يستخفوا بوعيد الله لوعيد الكتيبة . ولقوا شبا [٧] الأسنة ، وشائك السهام ، وظبات السيوف ، بنحورهم ووجوههم وصدورهم ، فمضى الشاب منهم قدما ، حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه ، واختضبت محاسن وجهه بالدماء ، وعفر [٨] جبينه بالثرى ، وانحطت عليه طير السماء ، وتمزقته سباع الارض .. فطوبى لهم وحسن مآب .

فكم من عين فى منقار طائر ، طالما بكى صاحبها فى جوف الليل من خوف الله ، وكم من يد قد أبينت [٩] عن ساعدها ، طالما اعتمد عليها صاحبها راكعا وساجدا ،

---

(١) أنضاء جمع نضو بكسر النون : وهو المهزول

(٢) اطلاح جمع طلح وهو كنضو وزنا ومعنى (٣) الكلال : التعب والأعياء

(٤) فوق السهم جعل له فوقا (بالضم) وهو موضع الوتر من السهم أى أعدت للرمى

(٥) اشرعت : سددت (٦) انتضيت : استلت

(٧) الشبا جمع شباة ، وهى حد كل شىء ، والظبات جمع ظبة ، وهى حد السيف

(٨) عفر : أصابه العفر بالتحريك وهو التراب (٩) أبينت : فصلت

وكم من وجه رقيق، وجبين عتيق (١) قد فلق بحد الحديد؛ ثم بكى وقال : آه آه على على فراق الاخوان ، رحمة الله على تلك الأبدان ، وأدخل أرواحهم الجنان ،

— ٦ —

خطبة الحجاج بالكـــوفة عام ٧٥ هـ

أنا ابن جلا (٢) وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفونى

والله ياأهل العـــراق : إنى لأرى رءوساً قد أينعت وحان قطافها (٣)، وإنى لصاحبها . وكأنى أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى (٤) ، ثم قال (٥) :

هذا أوان الشد فاشتدى زيم قد لفها الليل بسواق حطم (٦)

ليس براعى إبل ولا غنم ولا بجزار على ظهر وضم (٧)

---

(١) عتيق : كريم (٢) قال صاحب لسان العرب ابن جـــلا رجل مشهور بالفتك ، فيكون سحيم قد قال ذلك على التشبيه : أى أنا كابن جلا فى الغارة والشدة .

(٣) ينع (كضرب ومنع) أدرك . شبه رؤس العصاة المخالفين لأولياء أمورهم بالثمار التى تم نضجها فلم يبق إلا ان تقطف وتزال عن أغصانها .

(٤) إنما تكون الدماء بين العمائم واللحى من الضرب بالسيوف فى الجباه وأحرار الوجوه . (٥) قال : اى انشد ، لأن قائل هذه الأبيات هو رويشد بن رميض العنزى ، والشعر مقول فى شريح بن ضبيعة ، غزا اليمن فغنم وسبا ثم ضل وهو راجع فساق بأصحابه سوقا عنيفا حتى نجوا .

(٦) زيم : اسم ناقة او فرس . السواق الحطم : الذى لايبقى من السير شيئا .

(٧) الوضم : مايقطع عليه اللحم ، والمراد أنه ليس بضعيف الشأن كأحد هذين : الراعي والجزار .

قد افها الليل بعصلي أروع خراج من الدوى (١)
مهاجر ليس بأعرابي

ثم قال :

قد شمرت عن شاقها فشدوا وجدت الحرب بكم فجدوا
والقوس فيها وتر عرد مثل ذراع البكر أو أشد
لابد مما ليس منه بد

إني والله ياأهل العراق ما يتعقع لي بالشنان ، (٢) ولايغمز جانبي كتغماز التين (٣) ، ولقد فررت عن ذكاه (٤) وفتشت عن تجربة . وإن امير المؤمنين أطال الله بقاءه نثر كنانته بين يديه ، فعجم عيدانها ، فوجدني أمرها عودا ، وأصلبها مكسرا (٥) ، فرماكم بي لأنكم طالما أوضعتم (٦) في الفتنة ، واضطجعتم في مراقد الضلال والله لأحزمنكم حزم السلمة (٧) ولأضربنكم ضرب غرائب الابل (٨) ، فانكم كأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها

---

(١) العصلي : الشديد القوى العصب . الأروع : الذكي . الدوى : الصحراء لاعلم بها ولا إمارة . (٢) القعقعة : صوت الجلود اليابسة . الشنان جمع شن ، وهو الجلد اليابس (كسهم وسهام) والمراد لاأفزع بما لايفزع ذوي العقول .
(٣) اى لست بضعيف لين الجانب . (٤) فر الدابة : كشف عن اسنانها . الذكاء : تمام السن أو حدة القلب ، والمراد هنا المعنى الثاني .
(٥) الكنانة : جعبة السهام . عجم العود : عضه ليبلو صلابته . أمرها : من المرارة وهي طعم شجر المرار . المكسر : اسم مكان وهو موضع الكسر .
(٦) الايضاع : السرعة في السير .
(٧) السلمة : شجرة شائكة يعسر خرط ورقها فيشد بعضه إلى بعض ثم يضربها الخابط فيتناثر ورقها (٨) غرائب الابل : أي الغريبة عن مواطنها ، وهي تضرب حين تدخل بين الإبل ويكون ضربها بلا شفقة لأنها لاتهم الضارب .

الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون . وإنى والله ماأقول إلا وفيت ، ولا أهم إلا أمضيت ، ولا أخلق إلا فريت (١) وإن أمير المؤمنين أمرنى باعطائكم أعطياتكم وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبى صفرة ، وإنى أقسم بالله لا أجد رجلا تخلف بعد عطائه ثلاثة أيام إلا ضربت عنقه .

ثم قال : ياغلام اقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين ، فقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الملك امير المؤمنين إلى من بالكوفة من المسلمين : سلام عليكم ، فلم يقل أحد شيئا ، فقال الحجاج اكفف ياغلام ، ثم أقبل على الناس ، فقال : سلم عليكم أمير المؤمنين ، فلم تردوا عليه شيئا ، هذا أدب ابن نهية (٢) . أما والله لأؤدبنكم غير هذا الأدب او لتستقيمن . اقرأ ياغلام ، فلما بلغ قوله: السلام عليكم لم يبق فى المسجد احد إلا قال : وعلى امير المؤمنين السلام ، ثم نزل فوضع للناس اعطياتهم ، فجعلوا يأخذون حتى أتاه شيخ يرعش كبرا ، فقال ايها الأمير : إنى من الضعف على ماترى ، ولى ابن هو اقوى منى على الأسفار ، فقال الحجاج : نفعل ، فلما ولى الرجل قال قائل . أتدرى من هذا أيها الأمير ؟ قال لا ، قال : هذا عمير بن ضابىء البرجمى (٣) الذى يقول أبوه :

همت ولم أفعل وكدت وليتنى تركت على عثمان تبكى حلائله

ودخل عمير بن ضابىء على عثمان مقتولا فكسر ضلعين من أضلاعه ، فقال الحجاج: ردوه ، فلما رد قال له : هلا بعثت إلى امير المؤمنين بدلا يوم الدار ، إن فى قتلك ايها الشيخ لصلاحا للمسلمين ، ياحرسى اضرب عنقه ، فوقعت الرهبة للحجاج فى قلوب الناس ، فكان الرجل يضيق عليه امره ، فيرتحل ويأمر وليه ان

---

(١) خلق الصانع الأديم : قدره لما يريد منه قبل القطع ، والمعنى لا أعزم إلا صممت

(٢) رجل كان على شرطة البصرة قبل الحجاج (٣) ضابىء البرجمى شاعر كان على أيام عثمان ، وكان يضطغن على عثمان وحاول قتله فشد عليه عثمان العقاب

يلحقه بزاده ، وفى ذلك يقول عبد الله بن الزبير الأسدى، من شعراء الدولة الأموية، وهو من أسد خزيمة لا أسد قريش :

تجهز فاما أن تزور ابن ضابىء ... عميرا وإما ان تزور المهلبا
هما خطتا خسف نجاؤك منهما ... ركوبك حوليا من البلج أشهبا (١)

— ٧ —

خطبة لقطرى بن الفجاءة (٢) :

حمد الله واثنى عليه ثم قال :

أما بعد ، فانى أحذركم الدنيا فانها حلوة خضرة ، حفت بالشهوات ، وراقت بالقليل (٣) وتحببت بالعاجلة ، وحليت بالآمال ، وتزينت بالغرور . لا تدوم حبرتها (٤) ، ولا تؤمن فجعتها ، غرارة ضرارة ، خوانة غدارة ، وحائلة (٥) زائلة ونافدة بائدة ، أكالة غوالة . لا تعدو إذا هى تناهت إلى أمنية أهل الرغبة فيها والرضا عنها ان تكون كما قال الله تعالى (٦) : « كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح (٧) وكان الله على كل شىء مقتدرا » ، مع ان

---

(١) الحولى : الذى مضى عليه الحول . البلج : جمع أبلج وهو الأبيض . ويروى من الثلج . والمعنى أنه أشد شهبة من الثلج ، وصياغة التفضيل من اللون على رأى الكوفيين

(٢) قطرى بن الفجاءة المازنى خطيب شاعر من أبطال الخوارج وقادتهم وبلغائهم خرج زمن بنى امية ، ودعا لنفسه بالخلافة عشرين سنة حتى قتل بطبرستان سنة ٩٧ هـ

(٣) راقت الأعين بقلة متاعها ، وتحببت إلى النفوس بكونها عاجلة ليست آجلة كالأخرى . (٤) حبرتها : نعمتها . (٥) حائلة . متغيرة .

(٦) اى انها إذا وصلت بأهل الرغبة فيها إلى أمانيهم فلا تتجاوز وصف الله تعالى لها بهذه الآية . (٧) الهشيم : اليابس

امرأ لم يكن منها فى حبرة إلا أعقبته بعدها عبرة [١] ؛ ولم يلق من سرائها بطنا إلا منحته من ضرائها ظهرا [٢] ، ولم تطله فيها غيثة رخاء إلا هطلت عليه مزنة بلاء [٣]. وحرى إذا أصبحت له منتصرة أن تمسى له خاذلة متنكرة ، وإن جانب منها اعذوذب [٤] واحلولى أمر عليه جانب وأوبا [٥]، وإن أتت امرأ من غضارتها [٦] ورفاهتها نعما أرهقته من نوائبها نقما ، ولم يمس امرؤ منها فى جناح أمن إلا اصبح منها على قوادم خوف (٧) غرارة ، غرور مافيها ، فان ما فيها ، لاخير فى شىء من زادها إلا التقوى . من أقل منها استكثر مما يؤمنه ، ومن استكثر منها استكثر مما يوبقه (٨) ويطيل حزنه ، ويبكى عينيه. كم واثق بها قد فجعته ، وذى طمأنينة اليها قد صرعته ، وذى احتيال فيها خدعته ، وكم من ذى أبهة بها قد صيرته حقيرا ، وذى نخوة ردته ذليلا . . .

---

(١) العبرة الدمعة قبل أن تفيض اى احزنته (٢) كنى بالبطن والظهر عن الاقبال والادبار (٣) طلت السماء الارض : قطرت عليها الطل . والطل : المطر الضعيف والمزنة السحابة الممطرة

(٤) أى عذب (٥) أوبا أصله أوبأ اى صار وبا

(٦) القوادم الريش الكبير فى مقدم الجناح ، ويقابلها الخوافى (٧) يوبقه يهلكه

الكتابة فى العصر الاموى

— ١ —

كان العربى فى الجاهلية أميا لا يقرأ ولا يكتب ، ضناعته حرب يشنها ، أو معركة يخوضها ، أو مفاخرة يدلى فيها بمفاخره ، أو منافرة يسعى لها بمآثره . لم يكن يجلس إلى العلماء ، أو يحضر حلقة مؤدب ، أو يتزود بقبس من ثقافة .

— ٢ —

وفى صدر الاسلام ، أخذت الكتابة تنتشر ، بتشجيع الرسول وخلفائه ، للحاجة اليها فى تصريف شئون الدولة ومرافقها . فقد عنى الرسول صلوات الله عليه عناية فائقة ، منذ دخل المدينة ، وانتصر على قريش فى بدر ، فجعل فداء الأسير تعليم عشرة من المسلمين الكتابة ، وحث على تعلمها ، واتخذ كتابا للوحى ، وكتابا آخرين لإحصاء الغنائم ، والاجابة على رسائل الملوك ، وغير ذلك من مختلف الشئون .

ولما اتسعت الدولة ، وأنشأ عمر بن الخطاب الدواوين ، كثرت العناية بالكتابة وعظم الاهتمام بها ، وكان من الدواوين التى دونها : ديوان الجيش لكتابة أسماء الجند وأنسابهم وأعطياتهم ، وديوان الخراج لتنظيم إيرادات الدولة ومصروفاتها. وكان عمر يقول لكتابه : « إن القوة على العمل ألا تؤخروا عمل اليوم لغد، فانكم إذا فعلتم ذلك تذامرت عليكم الأعمال ، فلا تدرون بأيها تبدأون وأيها تؤخرون » .

وكانت الكتابة فى ذلك العهد — عصر صدر الاسلام — بسيطة فى مظهرها ، بليغة فى جوهرها ، يغلب عليها الطبع وترك التكلف والصنعة والتعمل ، وتشيع فيها

السهولة ، ويغلب عليها الايجاز ، دون أن يبدو فيها أثر للتنوق والتهذيب والتنميق واختيار الاساليب والألفاظ .

— ٣ —

وجاء العصر الاموى والكتابة على هذا النحو . فزادت العناية بها ، لاتساع أعمال الخلافة ، وكثرة شئون الحكم ، وتعدد الدواوين فقد زاد معاوية على ما كان منها فى عهد الخلفاء الراشدين .

١ — ديوان الخاتم : ومهمته أن يرسل اليه ما يكون للخليفة من توقيع ، ليصدر منه مختوما ، لا يدرى حامله مافيه ، ولا يستطيع أن يغيره . وسبب إنشاء هذا الديوان على ما ذكره الفخرى فى كتابه (الآداب السلطانية) : أن معاوية أحال رجلا على زياد أمير العراق بمائة الف درهم ، فمضى الرجل وجعل المائة مائتين ، فلما رفع زياد حسابه إلى معاوية أنكر ذلك . ثم تبين حقيقة الامر ، فأمر بوضع ديوان الخاتم : فصارت التوقيعات تصدر منه مختومة .

٢ — ديوان الرسائل : لكتابة الرسائل التى تصدر عن دار الخلافة . وقد اتخذ معاوية كاتبه على الرسائل عبيد الله بن أوس الغسانى . وظلت سنة الخلفاء اصطناع كتاب للرسائل ، وكانت الرسائل التى تصدر عن هذا الديوان تفيض بيانا ، وينضرها جمال الاسلوب وسحر البلاغة ؛ إذ كان الخليفة هو الذى يتولى إملاء الرسائل بنفسه ؛ فلم تظهر للكتاب شخصية ، إلا فى عهد سالم مولى هشام بن عبد الملك وكاتبه على الرسائل ، إذا كان ينوب عن الخليفة فى الكثير منها ، ويذيل بعض الرسائل بما يدل على أنه منشئها .

وكان الطابع العام للرسائل التى تصدر من الديوان أو ترد اليه . بساطة المظهر ، وعدم التكلف فى الخطاب . حتى إن الكاتب ليبدأ بتقديم اسمه على اسم من يرسل اليه ولو كان الخليفة . وظلت هذه الحالة مرعية ، حتى جاء الوليد بن عبد الملك ، فأنف أن يكتب اليه مع تأخير اسمه . ومن هنا أخذت الرسائل سمتا

آخر ، يلائم رغبة الخلفاء، ويرضى كبرياءهم . ولم يخرج على هذا النهج فيما بعد إلا عمر بن عبد العزيز ويزيد الكامل .

أما دواوين الخراج فقد استمرت الكتابة فيها بلغة البلاد المفتوحة ، حتى تم تعريبها فى عهد عبد الملك بن مروان ، فى مصر والشام والعراق ، من القبطية والرومية والفارسية ، على النحو الذى أشرنا اليه فيما سبق .

ونحن هنا لا نعنى بدراسة آثار ديوان الخاتم ، ولا ديوان الخراج أو الجيش ، لأن الكتابة فيها لم تكن تعتمد إلا على الأرقام والاحصاء ، دون أن يكون لها حظ من بلاغة القول ، ولا نصيب من جمال الأسلوب .

وإنما نعنى بدراسة ما كان يصدر عن (ديوان الرسائل) من الكتب البليغة ، الصادرة إلى الولاة والقواد وعمال الدولة .

ويعنينا كذلك أن ندرس ما استجد للكتابة فى آخر هذا العصر من (الرسائل الاخوانية) ، التى كان ينشئها الكتاب البلغاء ، فتحمل ما فى قلوبهم من مودة وإخاء ، أو تصور ما تجيش به مشاعرهم من مختلف الخوالج والنزعات ، أو تعبر عما يتردد فى نفوسهم من أفكار وآراء . فى أسلوب رائق ، ولفظ فائق ، وتصوير جميل .

فهذان اللونان هما أهم ما أثر من الكتابة الفنية فى هذا العصر ، وهما أبرز ما نعنى بدراسته ، ونهتم بالحديث عنه ...

وصف الكتابة الفنية :

وإن الناظر إلى هذه الكتابة الفنية ليجد أنها مرت بطورين ، وانقسم بها العصر الى عهدين :

فالعهد الأول من قيام الدولة عام ٤١ هـ ، الى زمن الوليد بن عبد الملك . وكانت الكتابة فيه تسير على نمطها فى صدر الاسلام ، من الايجاز والوضوح

والسهولة والبساطة وقلة التكلف ، وكان أغلبها يملى ارتجالا ، ويصدر عن ديوان رسائل الخليفة أو دواوين رسائل الولاة .

والعهد الثانى من أيام الوليد إلى آخر حياة الدولة ، وقد أخذت الكتابة فيه تتدرج فى التأنق والصنعة والاطناب وإشراق البيان ، حتى صارت صناعة فنية لها أصولها وقواعدها ، وكان زمامها فى هذا الطور بأيدى الموالى المثقفين بثقافة عربية واسعة ، والذين أضافوا إلى هذه الثقافة ما ورثوه من ثقافات أممهم العريقة فى العلم ، فمنهم من كان يعرف الفارسية أو الرومية أو اليونانية أو السريانية ، وآداب هذه اللغات المتنوعة ، كأبى العلاء سالم كاتب هشام بن عبد الملك ، وأستاذ عبد الحميد الكاتب ، وأحـــد الواضعين لنظام الرسائل ، وصنعة الكتابة (١) ، وكجبلة بن سالم كاتب هشام أيضا وكان يعرف الفارسية ، وكعبد الحميد بن يحيى الكاتب الذى يضرب به المثل فى صناعة الكتابة ، فيقال : بدئت الكتابة بعبد الحميد ، وقد احتفل بالكتابة وتأنق فيها ، ونقلها إلى مرحلة جديدة ، احتلت فيها المنزلة الرفيعة التى كانت للخطابة ، ويجعل الدكتور طـــه حسين نشأة الكتابة الفنية مدينة لعبد الحميد وعبقريته اللماحة (٢) ، ويختلف الباحثون فى ثقافة عبد الحميد المكملة لثقافته العربية : فالبعض يرون أنه كان يجيد الفارسية ويعرف آدابها ، وينقل عنها إلى العربية ، ومن هؤلاء الدكتور زكى مبارك فى كتابه « النثر الفنى (٣) » ، وسواه ، ويستدل هؤلاء على ثقافته الفارسية بقول أبى هـــلال العسكرى عنه انه « استخرج أمثلة الكتابة التى رسمها من اللسان الفارسى فحولها إلى اللسان العربى (٤) » ؛ ويرجح الدكتور طه أن عبد الحميد كان شديد الاتصال بثقافة اليونان (٥) .

---

(١) يروى صاحب الفهرست فى صفحة ١٧١ أنه ترجم إلى العربية رسائل أرسطو إلى الاسكندر .

(٢) ٤٥ و ٤٦ — ٥٢ من حديث الشعر والنثر للدكتور طه حسين .

(٣) ١/٥٧ النثر الفنى (٤) ٦٩ الصناعتين ، ٨٩ — ٢ ديوان المعانى (٥) ٤٢ ، ٤٤ من حديث الشعر والنثر .

والحق أن عبد الحميد جدير بأن يكون شيخ الكتاب لما حباه الله من مواهب عظيمة ، وصفات جليلة ، وذكاء نادر ، ولأنه تلميذ سالم مولى هشام ، وكانت ثقافته خليطا من العربية واليونانية ، ثم كان صديقا مخالطا لعبد بن المقفع الذى يجيد الفارسية والعربية . فاجتمع لعبد الحميد أسمى ما فى بلاغة العرب واليونان والفرس ، وقد استطاع بذلك أن يبتكر فى هذه الصناعة أمورا من أهمها :

١ ـ استطاع عبد الحميد أن يوجز فى غير إخلال حين يكون الإيجاز مطلوبا ، ويطيل فى غير إملال حين يكون الطول مرغوبا فيه ، حتى قيل إنه كان يكتب فى سطر واحد ما يكتبه فى صفحات . . ولقد روى أنه كتب إلى أبى مسلم الخراسانى حين أظهر الدعوة ليثنى العباس عن لسان مروان بن محمد كتابا يستميله فيه ، وقال لمروان : لقد كتبت كتابا متى قرأه بطل تدبيره ، فان يك ذاك وإلا فالهلاك ، وكان الكتاب لكبر حجمه يحمل على بعير ، فلما وصل إلى أبى مسلم أمر بأحراقه قبل أن يقرأه ، وكتب على جذاذة منه :

محا السيف أسطار البلاغة وانتحى عليك ليوث الغاب من كل جانب

وقالوا : إنه كان لقدرته على الايجاز فى موضعه ، والأطناب فى مكانه ، يتخير لكل منهما محله الذى يناسبه ، فيطنب فى الأخبار بالفتوح ، والحث على الجهاد ، والوعد والوعيد ؛ ويوجز فى أخبار الهزائم ووصف الأعداء . ومن إيجازه قوله موصيا بشخص : « حتى موصل كتابى اليك كحقه على ، إذ جعلك موضعا لأمله ، ورآنى أهلا لحاجته ، وقد أنجزت حاجته فصدق أمله » . وطلب منه مروان أن يكتب لعامل أهدى اليه عبداً أسود ، فكتب اليه : « لو وجدت لونا شرا من السواد وعددا أقل من الواحد لأهديته » .

٢ ـ وقد أكثر عبد الحميد من الرسائل الاخوانية ، وكانت قبله قليلة ضئيلة .

٣ ـ كما أطال فى الفواتح والخواتيم ، بما يعد جديدا فى هذا العصر ،

كالإتيان بكثير من التحميدات فى أساليب متنوعة وصور مختلفة ، وكالبدء ببسم الله ثم إتباعها بالحمد لله فاصلا بينهما بأما بعد .

* * *

تلك هى منزلة الكتابة فى العهد الثانى من عصر بنى أمية ، وذلك هو مكانها الرفيع الذى بلغته فى ذلك الطور ؛ ويرجع سر ازدهارها إلى ما يأتى :

أولا : اتساع أعمال الدولة وديوان الرسائل ، مما استدعى العناية بالكتابة والكتاب .

ثانيا : عناية الكتابة بها وجعلها صناعة فنية عتيدة ، مع تعدد ثقافاتهم العربية والأجنبية ، التى كان لها أثرها فى الكتابة ، حتى ليقال : إن عبد الحميد أول من نقل تقاليد الفرس إلى الكتابة العربية [1]

ثالثا : ضعف الملكات من أثر الاختلاط وتشعب الأعمال ، فقل الحرص على الخطابة ، وأخذت الكتابة فى الظهور والذيوع .

وبعد فان للموالى — من أبناء الفرس والروم واليونان ورثة الثقافة والمدنية — أثرا كبيرا فى نهضة الكتابة ، وتحولها إلى صناعة فنية ، لها منهجها وأسلوبها وطريق أدائها ، ولها نظامها فى البدء والختام : وكان لأذواقهم أثر فى اتسامها بالسهولة والوضوح ، وفى البعد عن الغريب والوحشى والتعقيد والتنافر وتفكك المعانى والأفكار ، فاشتدت الصلة بين كل جملة وأختها ، وقل الاقتضاب والاعتراض بين أجزاء الكلام .

وقصارى القول أن الكتابة الفنية بلغت فى هـــذا العصر غاية لاتدرك ، ومنزلة لا تنال .

---

(١) ١/٥٧ النثر الفنى .

التوقيعات :

على أننا لا نحب أن نترك الكلام عن الكتابة ، دون أن ننبه إلى لون جديد منها ظهر بوضوح فى هذا العصر . ذلك هو (التوقيع) ، وهو الكتابة على حواشى الرسائل التى ترفع إلى ذوى الشأن بما يفيد العلم بها ، وإبداء الرأى فيها .

وتمتاز هذه التوقيعات بالايجاز ، ولطف الاشارة ، وقوة الإثارة ، وسلاسة العبارة ؛ وكثيرا ما يكون التوقيع آية مقتبسة ، أو حديثا مرويا ، أو حكمة صائبة أو مثلا سائرا ، أو بيتا من الشعر .

ويقال إن أول ماعرف من ذلك كان لعمر بن الخطاب رضى الله عنه ، إذ كتب إلى سعد بن أبى وقاص فى بنيان : « ابن مايستر من الشمس ويكن من المطر » . ووقع إلى عمرو بن العاص : « كن لرعيتك كما تحب أن يكون لك أميرك » .

ووقع سعيد بن العاص فى كتاب لزياد يخطب إليه فيه : « كلا إن الانسان ليطغى أن رآه استغنى » .

ووقع عبد الملك فى كتاب للحجاج شكا فيه أهل العراق : « ارفق بهم ، فانه لا يكون مع الرفق ما تكره ، ومع الخرق ما تحب » .

وكتب عمر بن عبد العزيز توقيعا على كتاب عامل له يستأذنه فى تجديد بناء مدينة : « ابنها بالعدل ، ونق طرقها من الظلم » .

وكتب إليه عامله على الكوفة يخبره أنه فعل فى أمر فعل عمر بن الخطاب فوقع له : « أولئك الذين هداهم الله فبهداهم اقتده » .

ووقع سليمان بن عبد الملك لقتيبة بن مسلم ، حين كتب اليه يتهدده بالخلع :

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا أبشر بطول سلامة يا مربع !!

• • •

ولقد دعا إلى ذيوع هذا اللون من الكتابة الفنية ، ما تكاثر فى هذا العصر من مظاهر الملك ، وتنوع من شئون الدولة ، وتعدد من حاجات الناس ومطالبهم ؛ وكان لابد للخلفاء والولاة أن يدلوا فى كل ذلك برأى ، ويشيروا بما لديهم من تدبير . ومن هنا اضطروا إلى الايجاز فى التعليق ، واصطناع الحكمة فيما يختارون من توقيع .

وسنتحدث عن هذا اللون من الكتابة بأفاضة فى دراستنا للعصر العباسى .

نماذج الكتابة :

— ١ —

كان عروة بن الزبير عاملا على اليمن لعبد الملك بن مروان ، فاتصل به أن الحجاج يجمع على مطالبته بالأموال التى بيده وعزله عن عمله ، ففر إلى عبد الملك وعاذ به تخوفا من الحجاج ، واستدفاعا لضرره وشره ، فلما بلغ ذلك الحجاج كتب إلى عبدالملك بن مروان :

« أما بعد : فان لواذ (١) المعترضين بك ، وحلول الجانحين إلى المكث بساحتك ، واستلانتهم دمث (٢) أخلاقك ، وسعة عفوك ، كالعارض (٣) المبرق لأعدائه لا يعدم له شائما (٤) ، رجاء استمالة عفوك ، وإذا أدنى الناس بالصفح عن الجرائم كان ذلك تمرينا لهم على إضاعة الحقوق مع كل ضال ، والناس عبيد العصا ، هم على

---

(١) لاذ به لوذا ولواذا ولياذا . لجأ اليه وعاذ به .

(٢) دمث دمثا كفرح فهو دمث : لان وسهل . والدماثة : سهولة الخلق .

(٣) العارض : السحاب المعترض فى الافق .

(٤) شام البرق نظر اليه أين يقصد وأين يمطر .

شدة أشد استباقا منهم على اللين ، ولنا قبل عروة بن الزبير مال من مال الله ، وفى استخراجه منه قطع لطمع غيره ، فليبعث به أمير المؤمنين إن رأى ذلك ، والسلام

ـ ٢ ـ

فكتب اليه عبد الملك :

« أما بعد فأن أمير المؤمنين رآك ـ مع ثقته بنصيحتك ـ خابطا فى السياسة خبط عشواء (١) الليل ، فان رأيك الذى يسول لك أن الناس عبيد العصا ، هو الذى أخرج رجالات العرب إلى الوثوب عليك ، وإذا أحرجك العـــامة بعنف السياسة ، كانوا أوشك (٢) وثوبا عليك عند الفرصة ، ثم لا يلتفتون الى ضلال الداعى ولا هداه ، إذا رجوا بذلك إدراك الثأر منك ، وقد وليت العراق قبلك ساسة ، وهم يومئذ أحمى أنوفا ، وأقرب من عمياء الجاهلية ، وكانوا عليهم أصلح منك عليهم ، وللشدة واللين أهلون ، والافراط فى العفو أفضل من الافراط فى العقوبة ، والسلام »

ـ ٣ ـ

وكتب بشر بن مروان إلى عبد العزيز أخيه يعتذر عن كتاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم لولا الهفوة لم أحتج إلى العذر ، ولم يكن لك فى قبوله منى الفضل . ولو احتمل الكتاب أكثر مما ضمنته لزدت فيه ، وبقيا الأصاغر على الأكابر من شيم الأكارم ، ولقد أحسن مسكين الدرامى حين قال

أخاك أخاك إن من لا أخا له ... كساع إلى الهيجا بغير سلاح
وان بن عم المرء فاعلم جناحه ... وهل ينهض البازى بغير جناح؟

ـ ٤ ـ

وكتب عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر إلى بعض إخوانه :

---

(١) العشواء ، الناقة التى لا تبصر أمامها ، فهى تخبط بيديها كل شىء . (٢) أى أسرع

« أما بعد فقد عاقنى الشك فى أمرك عن عزيمة الرأى فيك ، وذلك أنك ابتدأتنى بلطف عن غير خبرة ، ثم أعقبتنى جفاء عن غير جريرة ، فأطمعنى أولك فى إخائك ، وأيأسنى آخرك من وفائك ، فلا أنا فى اليوم مجمع لك اطراحا ، ولا أنا فى غد وانتظاره منك على ثقة . . فسبحان من لو شاء كشف بإيضاح الرأى فى أمرك عن عزيمة الشك فيك ، فاجتمعنا على ائتلاف ، أو افترقنا على اختلاف ، والسلام .

— ٥ —

وكتب عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه — لما ولى الخلافة — إلى الحسن(١) البصرى ، أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل فكتب إليه الحسن رحمه الله .

« اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قوام(٢) كل مائل ، وقصد كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصفة كل مظلوم ، ومفزع كل ملهوف . والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالراعى الشفيق على إبله ، الرفيق الذى يرتاد(٣) لها أطيب المرعى ويذودها عن مراتع الهلكة ، ويحميها من السباع ، ويكنفها من أذى الحر والقر . والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحانى على ولده ، يسعى لهم صغارا ، ويعلمهم كبارا ، يكتسب لهم فى حياته ، ويدخر لهم بعد مماته . والامام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها ، حملته كرها ووضعته طفلا ، تسهر بسهره وتسكن بسكونه ، ترضعه تارة ، وتفطمه أخرى ، وتفرح بعافيته وتغتم بشكايته . والامام العدل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوارح ، تصلح الجوارح بصلاحه وتفسد بفساده . والامام العادل يا أمير

---

(١) هو أبو سعيد بن يسار مولى زيد بن ثابت الانصارى ، وكان الحسن من سادات التابعين وكبرائهم وكان نسيج وحده فى الفصاحة والعلم والعبادة والورع وتوفى بالبصرة سنة ١١٠ هـ

(٢) قوام الامر : عماده ونظامه . (٣) الارتياد : طلب الكلا فى مواضعه .

المؤمنين ، هو القائم بين الله وبين عباده ، يسمع كلام الله ويسمعهم ، وينظر إليه وتريهم ، وينقاد إلى الله ويقودهم .

فلا تكن ياأمير المؤمنين فيما ملكك الله كعبد ائتمنه سيده ، واستحفظه ماله وعياله ، فبدد المال ، وشرد (١) العيال ، فافتقر أهله وفرق ماله . وأعلم ياأمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود (٢) ليزجر بها عن الخبائث والفواحش ، فكيف إذا أتاها من يليها ، وأن الله أنزل القصاص حياة لعباده ، فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم

واذكر ياأمير المؤمنين الموت وما بعده ، وقلة أشياعك عنده وأنصارك عليه ، فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر . واعلم يا أمير المؤمنين ان لك منزلا غير منزلك الذى أنت فيه ، يطول فيه ثواؤك (٣) ويفارقك أحباؤك ، ويسلمونك فى قعره فريدا وحيدا ، فتزود له مايصحبك يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه . واذكر يا أمير المؤمنين اذا بعثر (٤) ما فى القبور ، وحصل (٥) ما فى الصدور ، فالأسرار ظاهرة والكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها . فالآن يا أمير المؤمنين — وأنت فى مهل قبل حلول الأجل وانقطاع الأمل — لاتحكم يا أمير المؤمنين فى عباد الله بحكم الجاهلين ، ولاتسلك بهم سبيل الظالمين ، ولاتسلط المستكبرين على المستضعفين ، فانهم لايرقبون فى مؤمنين إلا (٦) ولاذمة فتبوء بأوزارك وأوزارا مع أوزارك ، وتحمل أثقالك وأثقالا مع أثقالك . ولايغرنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك ويأكلون الطيبات فى دنياهم بأذهاب طيباتك فى آخرتك ، فلا تنظر إلى قدرتك اليوم ولكن انظر إلى قدرتك غدا وأنت مأسور فى حبائل الموت ، ومرقوف بين يدى الله فى مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين وقد عنت (٧) الوجوه للحى القيوم .

---

(١) التشريد : التفريق والطرد .
(٢) الحدود : العقوبات الرادعة
(٣) الثواء : الاقامة أو طولها .
(٤) بعثر : أثير وأخرج .
(٥) حصل : جمع
(٦) الال : العهد .
(٧) عنا : خضع .

إنى يا أمير المؤمنين وإن لم أبلغ بعظتى مابلغه أو النهى من قبلى فلم آلك (١) شفقة ونصحا ، فأنزل كتابى اليك كدواوى حبيبه ، يسقيه الأدوية الكريهة لما يرجوله فى ذلك من العافية والصحة ، والسلام عليك ياأمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

— ٦ —

وكتب عبد الحميد بن يحيى الكاتب إلى أهله وهو منهزم مع مروان .

أما بعد فان الله تعالى جعل الدنيا محفوفة بالكره والسرور ، فمن ساعده الحظ فيما سكن اليها ، ومن عضته بنا بها ذمها ساخطا عليها ، وشكاها مستزيدا (٢) لها . وقد كانت أذاقتنا أفاويق (٣) استحلبناها ، ثم جمحت (٤) بنا نافرة ، ورمحتنا (٥) مولية . فملح عذبها وخشن لينها فأبعدتنا عن الأوطان ، وفرقتنا عن الأخوان فالدار نازحة (٦) والطير بارحة (٧) وقد كتبت والأيام تزيدنا منكم بعدا وإليكم وجدا فان تتم البلية الى آخر مدتها يكن آخر العهد بكم وبنا ، وإن يلحقنا ظفر جارح من اظفار من يليكم نرجع إليكم بذل الإسار والذل شر جار .. نسأل الله الذى يعز من يشاء ويذل من يشاء أن يهب لنا ولكم ألفة جامعة فى دار آمنة ، تجمع سلامة الأبدان والأديان ، فانه رب العالمين وأرحم الراحمين :

— ٧ —

من رسالة عبد الحميد بن يحيى التى أوصى فيها الكتاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم ـ أما بعد ـ حفظكم الله ياأهل صناعة الكتابة وحاطكم

---

(١) انى لا آلوك نصحا : أى لا أقتر ولا أقصر .

(٢) يقول : ان الانسان فى شكايته الدنيا لا ينتصف منها بل كأنه يستزيدها . (٣) الافاويق : جمع أفواق . والافواق : جمع فيقة وهى اللبن الذى يجتمع فى الضرع بين الحلبتين . (٤) جمحت الدابة . غلبت راكبها . (٥) رمح الفرس : رفس . ٦ النازح . البعيد . (٧) البارح من الطير . عامر من ميامنك الى مياسرك ومن الناس من يتشاءم به

ووفقكم وأرشدكم — فان الله عز وجل جعل الناس — بعد الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ومن بعد الملوك المكرمين — أصنافا، وإن كانوا فى الحقيقة سواء، وصرفهم فى صنوف الصناعات وضروب المحاولات، إلى أسباب معاشهم، وأبواب أرزاقهم، فجعلكم معشر الكتاب فى أشرف الجهات، أهل الأدب والمروءات والعلم والرزانة، بكم تنتظم للخلافة محاسنها، وتستقيم أمورها، وبنصائحكم يصلح الله للخلق سلطانهم، وتعمر بلدانهم. لا يستغنى الملك عنكم، ولا يوجد كاف إلا منكم، فوقعكم من الملوك موقع أسماعهم التى بها يسمعون، وأبصارهم التى بها يبصرون، وألسنتهم التى بها ينطقون، وأيديهم التى بها يبطشون (١). فأمتعكم الله بما خصكم من فضل صناعتكم، ولا نزع عنكم ما أضفاه (٢) من النعمة عليكم. وليس أحد من أهل الصناعات كلها أحوج الى اجتماع خلال الخير المحمودة وخصال الفضل المذكورة المعدودة منكم أيها الكتاب. اذا كنتم على ما يأتى فى هذا الكتاب من صفتكم، فان الكاتب يحتاج فى نفسه ويحتاج منه صاحبه الذى يثق به فى مهمات أموره أن يكون حليما فى موضع الحلم، فهما فى موضع الحكم، مقداما فى موضع الاقدام، محجاما فى موضع الاحجام، مؤثرا للعفاف والعدل والانصاف، كتوما للأسرار، وفيا عند الشدائد عالما بما يأتى من النوازل، يضع الأمور فى مواضعها، والطوارق فى اماكنها. قد نظر فى كل فن من فنون العلم فأحكمه وإن لم يحكمه أخذ منه بمقدار ما يكتفى به، يعرف بغريزة عقله وحسن أدبه وفضل تجربته ما يرد عليه قبل وروده، وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره، فيعد لكل أمر عدته وعتاده، ويهيء لكل وجه هيئته وعادته.

فتنافسوا يا معشر الكتاب فى صنوف الآداب وتفهموا فى الدين وابدءوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض ثم العربية، فانها ثقاف السنتكم، ثم أجيدوا الخط فانه حلية كتبكم. وارووا الأشعار واعرفوا غريبها ومعانيها وأيام العرب والعجم

---

(١) يبطش : يفتك ويعمل. (٢) أضفاه : أسبغه.

وأحاديثها وسيرها فان ذلك معين لكم على ماتسموه إليه هممكم ولا تضيعوا الن
ل الحساب فانه قوام كتاب الخراج ، وارغبوا بأنفسكم عن المطامع سنيـ
ردنيها وسفساف الأمور ومحاقرها ، فانها مذلة للرقاب ، مفسدة للكتاب ، ونزه
صناعتكم عن الدناءة ، واربئوا بأنفسكم عن السعاية والنميمة وما فيه اد
لجهالات . وإياكم والكبر والسخف والعظمة ، فانها عداوة مجتلبة من غير إحنـ
وتحابوا فى الله عز وجل فى صناعتكم ، وتواصوا عليها بالذى هو ألبق لأه
لفضل والعدل والنبل من سلفكم ...

الشعر في العصر الأموي

للشعر في النفوس منزلة لاتساميها منزلة ، ومكانة لاتدانيها مكانة ، وله على القلوب سلطان لايطاوله سلطان . فهو بما يثير من أعاصيص ، ويبرز من مشاعر ويحرك من عاطفة ، يدعو إلى الأخذ بأسباب المجد ، ويبعث على اكتساب الحمد . ويحفز العزائم ، ويوقظ الهمم ، ويعبر عما يختلج في نفوس الناس من آمال وآلام ، ومايساورهم من أماني وأحلام . فهو المرآة الصادقة لحال المجتمع من سعادة وشقاء ، وصلاح وفساد ، واللسان الناقد للوجه الذي يرهبه الحاكم ، ويستعين به أصحاب الدعوة وأرباب السلطان ، في تثبيت ملكهم ، وتأييد سلطانهم

كذلك كانت منزلته في الجاهلية : فخر القبيلة ، وعنوان مجدها ، وبرهان حسبها ، يذيع محامدها ، وينشر مفاخرها ، ويرفع من قدرها ، تنزله الجباه ، ويرهبه الطغاة ، ويقوى به الضعيف ، ويذل بسببه الشريف : ثم كان النفير الذي تهتاج له الحروب ، وتعنف الخصومات ، وتلتهب نيران العداوة ، وتأجج الحفائظ والترات ، وإلى ذلك كان الداعي إلى السلم ، والمنفر من الحرب ، والمصور لأهوالها وفظائعها :

وما الحرب إلا ماعلمتم وذقتمو وما هو عنها بالحديث المرجم

فتستجيب له النفوس الثائرة ، وتخمد النيران المتقدة .

وكان في الإسلام لسان الدعوة الطاهر ، وبرهانها الساطع ، المنافح عن مبادئها ، والمناهض لأعدائها ، والمترصد لخصومها ، حتى استطاع أن يحل من نفس الرسول صلى الله عليه وسلم منزلة كريمة ، ويتبوأ مكانة رفيعة . وقد استعان

به صلوات الله عليه فى مناهضة المشركين ، وإسكات الألسنة اللاذعة التى أطلقها شياطين الشرك .

٨ عناية الأمويين به وأسبابها :

وفى عهد بنى أمية تكاثرت مظاهر الحياة ، وتنوعت صور الحضارة ، وتشعبت مذاهب الجماعات ، وتجددت نوازع العصبيات ، وتعددت ألوان الخصومات وانقسم الناس فى عواصم الدولة وحواضر الملك : شيعا وأحزابا . لكل شيعة هوى ، ولكل حزب رأى ، ولكل جماعة حجة تقارع حجة ، وقول يناهض قولا ، وألسنة تصاول إسكات ألسنة .

فقد علمنا أن ملك هذه الدولة قام بقوة السلطان وحد السيف ، ونهض به معاوية وخلفاؤه ، بعد حروب عويرة ، أزهقت فيها أرواح ، وسفكت دماء . فلما استقر لهم الأمر ، ظلت نفوس كثير من المسلمين تتلوى على ما كانت تضمره لهم من بغض وعداوة ، ومن هنا نشأت تلك الأحزاب السياسية التى قاومت سلطانهم ، وناوأت نفوذهم ، وكانت عليهم حربا شعواء ، آلتها اللسان والسنان .

فإذا نهض أنصار الدولة بتشييدها فى الشام ، لتدعيم سلطانها ، وتقوية بنيانها والتمكين لها فى النفوس ، يؤيدهم شراء أقوياء كجرير والفرزدق والأخطل . . فقد كان مالك بن الحباب حزب الزبيريين يناقض على الدولة ، ويحاول استلاب الملك ، ولهذا الحزب شعراء يدعون الناس إليه ويؤلبون النفوس على خصومه ، كعبد الله بن قيس الرقيات . وكان فى العراق حزب يناصر أهل البيت ويتعصب لهم ، ويرى أنهم أحق بالخلافة ، وأولى بأمور المسلمين من بنى أمية ، ولهذا الحزب شعراء فى كل مكان ، يشيدون بمناقب العلويين ، ويذيعون فضائل الأمويين ، ومن هؤلاء الكميت صاحب الهاشميات . . . وهناك حزب الخوارج ، ومن شعرائه قطرى ابن الفجاءة ، وعمران بن حطان .

وسكتنا وجلت عن ذكر الشعر ورواته ، وورجعت الأسباب التى تهيج

شياطينه ، وتبعث أفانينه ، وتدعوه إلى إجادة القول فيه ، حتى لقد نبغ فى هذا العصر ما يزيد على مائة شعر من شعراء القصر ، ما بين مصور لمظاهر الملك ، وألوان الحضارة ، ومعبر عن أهواء النفوس ، ومخطرات الأنفة ، وناطق بما تفصح به العصبيات السياسية من نوازع ورغبات .

وهكذا اشتدت الحاجة إلى الشعر تأييداً للملك ، أو انتقاضا عليه ، وازدادت العناية به ، وعظم الاهتمام بأصحابه . هذا إلى ما سبق أن أوضحناه فى أسباب العناية بالأدب ، من أن القوم عرب ، يطربهم الشعر القوى ، ويهزهم القصيد الرائع ، وتدعوهم الرغبة المتقدة فى نفوسهم ، إلى تشجيع الشعراء ، واصطناعهم ، تقديرا لهذا الفن ، واعترافا بسلطانه على النفوس ، وتأثيره فى الجماعات .

ومن هنا رأينا خلفاء بنى أمية يتنافسون الشعراء ، ويخصونهم بجزيل العطايا وجليل الصلات ، ويستمعون إليهم فى غير مجلس ، وتلهب أعطافهم : بل يغضون من شرفهم أحيانا ، ويتنازلون عن مجلسهم ، تقديرا لفنهم ، أو رغبة فى اصطناعهم .

ولقد دعاهم حبهم للشعر ، وتشجيعهم لناظمه ، بل الحرص على روايته ، والإنسان لناليه ، وعقد المجالس لنشده والتراضى بجيده ، والموازنة بين المعانى التى يطارحه الشعراء ، والمفاضلة بين أقدارهم ومنازلهم :

فقد دعا هشام بن عبد الملك لثلاثة شعراء ، وهم جرير والفرزدق والأخطل وهو يومئذ أمير : ألا تخبرونى عن رجلين قد مرقوا أعراضهم ، وهتكوا أستارهم ، وأغرقوا بين حسناتهم فى نار شعر ولا بد لى من نفع ، أيهم أشعر ؟

فقال شبة : أما جرير فيغرف من بحر ، وأما الفرزدق فينحت من صخر ، وأما الأخطل فيغمس المسح وينضح .

فقال هشام : ما فسرت لنا شيئا نصله . فقال : ما عندى غير ما قلت . . فقال لخالد بن صفوان : صفهم لنا يا ابن الأهتم ، فقال : أما أخطلهم فنصراني ، وأبعدهم

ذكرا ، وأحسنهم عذرا ، وأسيرهم مثلا ، وأقلهم غزلا ، الطامى إذا زخر ، والحامى إذا زأر ، والسامى إذا خطر ، الذى إن عدر قال ، وإن خطر صال ، القصير اللسان ، الطويل العنان ، فالفرزدق . . . وأما أحسنهم نعتا ، وأعلاهم بيتا ، وأقلهم فوتا ، الذى إن هجا وضع ، وإن مدح رفع ، فالأخطل . . . وأما أغزرهم بحرا ، وأرقهم شعرا ، وأهتكهم لعدوه سترا ، الأغر الأبلق ، الذى إن طلب لم يسبق ، وإن طلب لم يلحق ، جرير . . وكلهم ذكى القوائد ، رفيع العماد ، وارى الزناد .

٢ — وسأل يوما عبد الملك بن مروان :

من أشجع الناس شعرا ؟ فقيل : عمرو بن معديكرب ، فقال : كيف وهو الذى يقول :

فجاشت إلى النفس(١) أول مرة فردت على مكروهها فاستقرت

قالوا : فعمرو بن الأطنابة ، فقال : كيف وهو الذى يقول :

وقولى لى كلما جشأت(٢) وجاشت مكانك تحمدى أو تستريحى

قالوا : فعمرو بن الطفيل ، قال : كيف وهو الذى يقول :

أقول لنفس لايجـــاد بمثلها أقلى مراحا إننى غير مدبر

قالوا : فمن أشجعهم عند أمير المؤمنين ؟ قال : أربعة . عباس بن مرداس السلمى ، وقيس بن الخطيم الأوسى ، وعنترة بن شداد العبسى ، ورجل من بنى مزينة ، أما عباس فقوله :

أشد على الكتيبة لا أبالى أفيها كان حتفى أم سواها

وأما قيس فقوله :

---

(١) جاشت النفس : اضطربت من الفزع ، وأصل جاشت : غلت وفاضت

(٢) أى ارتفعت من حزن وفزع

وإنى لدى الحرب العوان موكل بتقديم نفس لا أريد بقاءها

وأما عنترة فقوله :

إذ يتقون بى الأسنة لم أخم عنها ولكن قد تضايق مقدمى

وأما المزنى فقوله :

دعوت بسنى قحافة فاستجابوا فقلت : ردوا فقد طاب الورود

٣ — وقال الشعبى : دخلت على عبد الملك بن مروان فى علته التى مات فيها ؛ فقلت : كيف تجدك ياأمير المؤمنين ؟ فقال : ياشعبى : أصبحت كما قال عمرو بن قميئة :

وأهلكنى تأميل يوم وليلة وتأميل عام بعد ذاك وعام

على الراحتين تارة وعلى العصا أنوء ثلاثا بعدهن قيامى

فقلت : ليس كذلك ياأمير المؤمنين ، ولكن كما قال لبيد وقد بلغ مائة سنة :

ولقد سئمت من الحياة وطولها وسؤال هذا الخلق : كيف لبيد ؟

فلما بلغ مائة وعشرا قال :

أليس ورائى إن تراخت منيتى لزوم العصا تحنى عليها الأصابع

فلما بلغ ثلاثين ومائة وأدركته الوفاة قال :

تمنى ابنتاى أن يعيش أبوهما وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر

فإن حان يوما ان يموت ابوكما فلا تخمشا وجها ولا تحلقا شعر

فتبسم عبد الملك وقال : لقد قويت من نفسى ، وملئى من يأس ، وأمر لى بصلة ، وأجلسنى أحدثه حتى امسيت ، وخرجت من عنده ، فما اصبحت حتى سمعت الصراخ فى داره .

ومن هذه الصور إلى ماسبق من أمثالها ندرك عناية الأدبيين بالشعر ، ومبلغ تقديرهم لرسالته ، ومقدار حبهم له وعظيم منزلته فى نفوسهم ، ودقة أحكامهم فى النقد والتمييز .

أثر هذه العناية :

ولقد كان لهذه العناية البالغة أثر عظيم فى صقل الشعر ، وتهذيب أساليبه ، وتجديد معانيه ، والسمو بأخيلته . إذ أدرك الشعراء أن عطاياهم إنما تكون على قدر إجادتهم وسبقهم : فبالغوا فى تهذيب أشعارهم ، وحرصوا على التفوق والسبق فى معانيهم ، لينالوا الإعجاب ، ويحظوا بما يطمحون إليه من الجوائز والصلات .

على أنه كان ثمة شعراء يأنفون أن يحملوا أشعارهم وسيلة إلى الكسب واستجداء العطاء ؛ وهذا عمران بن حطان : يثنى على الفرزدق ، وهو ينشد شعره ، فيقول له :

أيها المادح العباد ليعطى ... ن الله ما بأيدى العباد
فسل الله ما طلبت إليهم ... راج فضل المقسم الجواد
لا تقل للجواد ما ليس فيه ... وتسمى البخيل بالجواد

هذه آثار العناية بالشعر فى نفوس قائليه ، وفى جوهر الشعر نفسه ، وقد تبع ذلك أن أغرم به الناس ، وتتبعوا كل ما يصدر عن الشعراء من قول سائر فى مدح أو فخر أو هجاء أو غزل ، وأخذوا يتعقبون جيد المعانى ، ويتعصبون للشعراء ؛ حتى وجد لكل شاعر أنصار يقدمونه على غيره ، ويعتزون بما يقول ، ولو أدى ذلك إلى التجالد بالسيوف والمقارعة بالحراب .

وبلغ من قوة تأثير الشعر وعظيم سلطانه ، أن الناس كانوا يفرقون أشد الفرق من سوط الهجاء ، حتى ليؤثر أن امرأة من بنى جعفر بن كلاب خافت على نفسها من هجاء الفرزدق ، حين تناول قومها ، فعاذت بقبر أبيه ؛ فأعفاها من هجائه ، وقال :

عجوز تصلى الخمس عاذت بغالب ... فلا والذى عاذت به لا أضيرها

ويروى فى مبلغ تأثيره والاستجابة لشفاعته :

أنه لما ولي الحجاج تميم بن زيد ، السند ، دخل البصرة ، فجعل يغرق من أهلها من شاء ، وكان ممن أخرجه ابن الجهوز ، فلم تعد من إليها ، ويرد عليها ولدها سوى الفرزدق ، فجاءت إليه ، وقالت : إني امرأة ، بئس أرض ، وأتت بحفنة من ترابه ، وقصت عليه قصتها . فكتب إلى الحجاج يشفع فيها بهذين :

تميم بن بدر لا تحكمن حاجتي ... بظهر الفلا يبدا عليّ مغيبها
وهب لي حنيفاً واحتسب فيه مثة ... لعبرة أم ليس منك نصيبها
أتتني فصادت يا تميم بفصالب ... وبالغمرة الداعي عليها زبيبها
وقد علم الأقوام انك ماجد ... وليث إذا ما الحرب شب لهيبها

فلما قرأ تميم هذا الشعر اشتبه في الأسم : أحنيش أم حبيش ، فقال : انظروا من له مثل هذا الأسم في عسكرنا ، فأصيب ستة عشر بين حنيش وحبيش ، فأعيدوا إلى أهلهم .

وخلاصة القول أن الشعر بلغ في ظلال هذا البيت من الجزالة والقوة ومن سمو المعاني ونضج الأساليب ، ما جعله يتمكن من النفوس ، ويصل إلى أعماق القلوب ، ويستولي على مكان الرعاية ومواطن الاجلال من الخلفاء والولاة ، ومن خاصة الناس وعامتهم . وهكذا بقي نقي الصفحة ، لامع الرونق ، ناضر البهاء .

أغراض الشعر الأموي

طرق الشعراء في هذا العصر جميع الأغراض التي تناولها الشعراء من قبل ، كالمدح والفخر والهجاء والرثاء والغزل ، ونحو ذلك من الأغراض العامة التي يتداولها الشعراء في كل عصر ، بيد أن هذه الأغراض قد تأثرت بما جد من

مظاهر الحضارة وألوان الترف ، وتشكلت بصورة البيئة وأحوال المجتمع ، وظروف السياسة .

وقد استجدت في هذا العصر أغراض لم تكن موجودة من قبل ، كالشعر السياسي الذي كان صدى لهذه الخصومات السياسية ، والمعاورات القبلية ، والمنافرات الحزبية ؛ وكأنواع من الغزل لم تكن معروفة من قبل ، وألوان من وصف البلاد المفتوحة ، ونحو ذلك من تصوير لعقيدة دينية ، أو دعوة إلى زهد وتقشف ، مما استدعته مظاهر الحياة الجديدة وملابساتها .

وينبغي أن نلاحظ أن هذه الأغراض جميعها قد اختلفت باختلاف الأقاليم ، وتأثرت بأحوال البيئات ، ففي الحجاز كثر الترف ، وفاض الثراء ، وشغل شباب الهاشميين بما أتيح لهم من فراغ ونعيم ، عن المطالبة بالملك ، والاشتغال بالسياسة ، وانصرفوا إلى مجالس الغناء ، ومشاهد الجمال . فشاع لذلك الغزل الرقيق ، والتشبيب العابث .

وفي العراق كثرت الأحزاب واضطرمت العصبيات ، واستحكم الخلاف السياسي ، واشتدت المعارضة لبني أمية ؛ فكان الشعر العراقي صورة واضحة لما يعتمل في المجتمع من حياة ثائرة ، وفتنة جارمة ، وخصومات عنيفة ، فهو قوي عنيف يكثر فيه الفخر والهجاء ، ويصطبغ بالصبغة البدوية الجزلة ، وفي هذه البيئة ولد الشعر السياسي الذي يعد جديداً في هذا العصر .

— أما الشام فكان مهد الملك ، ومقر الخلفاء ، ومثابة الشعراء ، وكعبتهم التي يحجون إليها ، حاملين ما جادت به خواطرهم ، وفاضت مشاعرهم ، ثم يعودون وقد احتقبوا سني الجوائز ، وعظيم الصلات . وفي ظلال الخلافة بالشام جرت ريح الشعر رخاء ، تطرق أبواب أغراضه الأخرى في رفق ويسر : من وصف ومدح ونحو ذلك .

الشعر السياسى :

استبان لنا مما قدمنا من دراسات أن هذه الدولة قامت على أسنة الحراب والرماح ، وعاشت كذلك مدة حياتها ، تجالد خصوماً أقوياء ، وأعداء ألداء يجرحونها بالألسنة ، ويقاومونها بالأسنة ، وكان لكل حزب من خصومها شعراء يتعقبون مثالبها ، ويندبون بسياستها ، ويثيرون الحفائظ عليها .

وكان كل شاعر من هؤلاء يشيد بحزبه ، ويدعو له ، ويؤلف القلوب حوله ، ويهجو خصومه السياسيين ، ويرثى شهداء جماعته .

١ — فهذا الكميت يتعصب أشد التعصب لبنى هاشم ، ويقف عليهم قلبه ولسانه ، غير مبال بما يلحقه من إيذاء ، وما يناله من ضرر . وهو القائل :

طربت وما شوقاً إلى البيض أطرب ... ولا لعباً منى وذو الشيب يلعب
ولم يلهنى دار ولا رسم منزل ... ولم يتطربنى بنان مخضب
ولا السانحات البارحات عشية ... أمر سليم القرن أم مر أعضب (١)
ولكن إلى أهل الفضائل والتقى ... وخير بنى حواء والخير يطلب
إلى النفر البيض الذين بحبهم ... إلى الله فيما نابنى أتقرب
بنى هاشم رهط النبى فانى ... بهم ولهم أرضى مراراً وأغضب
خفضت لهم منى جناحى مودة ... إلى كنف عطفاه أهل ومرحب
وكنت لهم من هؤلاء وهؤلا ... محباً على أنى أذم وأقصب (٢)
وأرمى وأرمى بالعداوة أهلها ... وإنى لاوذى فيهمو وأؤنب
فقل للذى فى ظل عمياء جونة ... ترى الجور عدلا أين (لا أين) تذهب
بأى كتاب أم بأية سنة ... ترى حبهم عاراً على وتحسب

(١) أعضب : مكسور القرن .
(٢) أقصب : أعاب

وقالوا ترابي هـ واه وبأبه بذلك أدعى فيهمو وألقب (١)

وفي هذه القصيدة الشاعرية حجابة في الدولة تلقنه خصوم آل البيت :

يقولون لم يورث ولولا تراثه لقد شركت فيه قبيل وأرحب (٢)
فان هي لم تصلح على سواهم إذن فهم للقربى أحق وأقرب
فيالك أمرا قد أشقت بغيه وثارا برئت أسبابها تتقضب (٣)
تبدلت الأشرار بعد خيارها ورجت بها من أمة وهي تلعب

وهذا كثير عزة يشرح عقيدة الشيعة في الإمامة بقوله :

ألا إن الأئمة من قريش ولاة الحق أربعة سواء
(علي) والثلاثة من بنيه هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط إيمان وبر وسبط غيبته كربلاء
وسبط لا يذوق الموت حتى يقود الخيل يقدمها اللواء
تغيب لا يرى فيهم زمانا برضوى عنده عسل وماء

ويعيب الكميت على بني أمية جورهم ، ويدعو الله أن تدول الدولة للهاشميين :

فقل لبني أمية حيث حلوا وإن خفت المهند والقطيعا
أجاع الله من أشبعتموه وأشبع من جوركم أجيعا
بمرضى السياسة هاشمي يكون حيا لأمته ربيعا

٢ ـ وهذا عبد الله بن قيس الرقيات من حزب الزبيريين ، يمدح مصعب ابن الزبير ويفخر بقريش ، ويندد بخصومهم :

حبذا العيش حين قومي جميع لم تفرق أمورها الأهواء
قبل أن تطمع القبائل في مل ك قريش وتشمت الأعداء

---

(١) ترابي نسبة إلى علي بن أبي طالب الملقب بأبي تراب
(٢) بجيل وأرحب قبيلتان (٣) تتقضب : تتقطع

أيها المشتهى فتاة قريش ... بيعة الله حسرها والفناء
إن توجح من البلاد قريش ... لا يكن بعدهم لحي بقاء
لو بكت مقلة السماء على قو ... م كرام بكت عليهم السماء
إنما مصعب شهاب من الله ... سناه تجلت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك قدرة ليس فيه ... جبروت ولا به كبرياء
أنا عنكم بن أمية من قد ... علم الناس في نفس الاعداء
إن قتلي بالطف قد أوجعتكم ... فعلى مثلكم تكن قتلي شفاء (١)

٣ ـ وعوّلا على الخوارج يضربونها للدولة والشعب في الطرق ، والقذى في العيون ، ترصد لهم الدولة أعتى القوى ، والذي الأسلحة ، فلا تستطيع أن تخمد لهم شوكة ، أو تضعف منهم قوة ، أو تسكت منهم لسانا . فهم بما تغلغل في قلوبهم من عقيدة ، واستقر في نفوسهم من مذاهب ، لا يفتأون يحاربون الحاكمين في عنف ، ويصالحون مخالفيهم في الرأي في قسوة مرة ، وصلابة عنيفة . وهذا شاعر من شعرائهم ، هو قطري بن الفجاءة يصف موقفا نشبت فيها رحى الحرب بينهم وبين أهل البصرة ، في يوم دولاب ، وهي بلدة بالأهواز :

لعمرك إن في الحياة لزاهد ... وفي العيش عما ألم أم حكيم
من الخفرات البيض لم يرملها ... سفاه الفتى بك ولا لمقيم
لعمرك إن يوم الطف وجها ... على نائبات الدهر جد لئيم
ولو شهدتني يوم دولاب أبصرت ... طعان فتى في الحرب غير ذميم
غداة طغت علباء بكر بن وائل ... وجمنا صدور الخيل نحو تميم
وكان لعبد القيس أول جدها ... وأحلافها من يحصب وسليم
وظلت شيوخ الأزد في حومة الوغى ... تهوم وظلنا في البلاد نهوم
فلم أر يوما كان أكثر مقعصا ... يمج دما من فائظ وكليم (٢)

---

(١) الطف : موضع قرب مكة دار فيه قتال بين الأمويين والزبيريين
(٢) مقعصا : قتلا . فائظ : ميت . كليم : جريح

وضاربة خدا كريما على فتى ... أغر نجيب الأمهات كريم
أصيب بدولاب ولم تكن موطنا ... له أرض دولاب ودير حميم
فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنا ... تبيح من الكفار كل حريم
رأت فتية باعوا الإله نفوسهم ... بجنات عدن عنده ونعيم

فهو بهذا يعتبر أعداء حزبه كفارا، تستباح دماؤهم، ويعد قتلى الخوارج شهداء باعوا نفوسهم بجنات النعيم.

وهذا عمران بن حطان وكان مغاليا في التعصب على (علي) يمدح ابن ملجم قاتله:

لله در المرادي الذي سفكت ... كفاه مهجة شر الخلق إنسانا
أمسى عشية غشاه بضربته ... ما جاء من الآثام عريانا
يا ضربة من كريم ما أراد بها ... إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا
إني لأذكره يوما فأحسبه ... أوفى البرية عند الله ميزانا

ولعل صرامة هؤلاء الخوارج في الحرب، وبسالتهم في القتال، وحماستهم المنقطعة النظير، في الدفاع عن الرأي، والفناء في العقيدة: تتمثل في إحدى نسائهم، وهي أم حكيم، التي كانت تحمل على خصومها في إحدى المواقع، وترتجز:

أحمل رأسا قد شمت حله ... وقد ملت دهنه وغسله
ألا فتى يحمل عن ثقله

٤ — وهؤلاء الأمويون كانوا أسبق الناس في ابتداع هذه البدعة، واستنان هذه السنة، وإثارة الشعراء وتحريضهم على خصومهم: أثاروا الأخطل شاعرهم على الأنصار، فهجاهم بقوله:

ذهبت قريش بالمكارم كلها ... واللؤم تحت عمائم الأنصار

لما اضطر النعمان بن بشير الأنصاري إلى الدخول على معاوية، متألما شاكيا، قائلا من قصيدة له:

وإني لأغضي عن أمور كثيرة ... ستزوى بها يوما إليك السلالم

وقد كثر الشعراء الذين يهجون الأمويين ، وينتقدون سياستهم ، وكان شعراء الأمويين الكثيرون ، يصدون هذه الهجمات ، ويردون على هذه الانتقادات ، ويمدحون بني أمية ، ويهجون خصومهم ، فهذا أعشى ربيعة يقول في مدح عبد الملك ورجاء الزبيريين :

آل الزبير من الخلافة كالذي ... عجل النتاج بحملها فأحالها
أو كالضعاف من الحمولة حملت ... مالا تطيق فضيعت أحمالها
قوموا إليهم لا تناموا عنهمو ... كم للغواة أطلقوا إبهالها
إن الخلافة فيكمو لا فيهمو ... مازلتمو أركانها وثمالها
أمسوا على الخيرات قفلا مغلقا ... فانهض بيمنك فافتح أقفالها

وهذا الأخطل يقول في مدح عبد الملك وذم خصومه :

نفسي فداء أمير المؤمنين إذا ... أبدى النواجذ يوماً صارم ذكر
الخائض الغمرة الميمون طائره ... خليفة الله يستسقى به المطر
في نبعة من قريش يعصبون بها ... ما إن يوازى بأعلى نبتها الشجر
تحشد على الحق مهما أنت ألبت بهم ... إذا ألمت بهم مكروهة صبروا
لا يستقل ذوو الأضغان حربهمو ... ولا يبين في عيسادهم خور
شمس العداوة حتى يستقاد لهم ... وأعظم الناس أحلاماً إذا قدروا
بني أمية أنباكم مجلتة ... تمت فلا منة فيها ولا كدر

وفيها يقول :

بني أمية إني ناصح لكمو ... فلا يبيتن منكم آمنا زفر
فإن مشهده حشف ونائلة ... وما يغيب من أخلاقه وعر
إن العداوة تلقاها وإن كمنت ... كالنار يكمن حينا ثم ينتشر
بني أمية قد باضت دوانحكم ... أبناء قوم هموا آووا وهم نصروا

obeikandi.com

وبعد فهذا اللون من الشعر جد زاخر ، تلاطمت أمواجه ، وتدافعت أثباجه في هذا العصر المضطرم بألوان العصبيات السياسية والقبلية ، وحسبنا منه هذه القطرات التي تكشف عن أهم عناصره ، وأوضح مناحيه ، من مدح مشوب بالتحريض ، أو هجاء توحي به الأحقاد ، أو جدل حول فكرة سياسية ، أو شرح لعقيدة دينية أو حزبية . فهو بهذه الألوان المتعددة ، والمعاني المتنوعة ، والكثرة الزاخرة ، يمد غرضاً جديداً في هذا العصر .

شعر الشعوبيـــــة :

ولا يفوتنا أن نذكر أن شدة العرب على غيرهم من الموالي في هذا العصر ، واعتزازهم بكل ما هو عربي ، واحتقارهم لكل ما هو أعجمي ، وأنفتهم منه ؛ جعل أناساً من الموالي يتصدون لمحاربة العرب ، وإن منتهم قوة الدولة ، وعنفوان سلطانها ، أن يظهروا بهذه العداوة وأن يباشروا تلك الخصومة ؛ لقد كان يحرى على ألسنتهم أحياناً ما يعبر عما يستكن في نفوسهم من حفيظة وموجدة على العرب ، ويحاولون أن يظهروا ما في نفوسهم في عصبية لأجناسهم ، واعتزاز بشعوبهم . وقد سمي هؤلاء « شعوبيين »(١) ومن هنا بدا يظهر لون جديد من ألوان الأدب ، وغرض مستحدث من أغراض الشعر ، هو الشعر الشعوبي ، وقوامه الطعن على العرب ، والانتقاص لهم بالأعاجم عناصر « الفرس » ، والإشادة بحضارتهم ومجدهم وما كان لهم من دولة وسلطان .

ويعزى أن هذا اللون من الشعر قد اتسع انتشاراً شاملاً في العصر العباسي ، حتى خلف ثروة ضخمة من الشعر العربي .

ومن شعراء الشعوبية في العصر الأموي : اسماعيل بن يسار وإخوته محمد

---

(١) نسبة إلى الشعب جمع شعب ، وهو جيل من الناس أوسع من القبيلة ؛ أو من الشعوب في قوله تعالى : « وجعلناكم شعوباً وقبائل » على أن المراد بالشعوب العجم وبالقبائل العرب .

وابراهيم وهم من عنصر فارسي ، والطيقطان الشاعر هو من سلالة حبشية ، وابن رباح وهو من أصل زنجي :

وهذا اسماعيل بن يسار يدخل على هشام بن عبد الملك في خلافته ، فينشده شعرا يقول فيه :

إني وجدك ماعودي بذي خور ... عند الملحافظ ، ولا حوضي بمهدوم
أصلي كريم ومجدي لا يقاس به ... ولي لسان كحد السيف مسموم
أحمي به مجد أقوام ذوي حسب ... من كل قرم بتاج الملك معموم (١)
من مثل كسرى وسابور الجنود معا ... والهرمزان : لفخر أو لتعظيم
أسد الاحكتاب يوم الروع إن زحفوا ... وهم أذل إماء الشرك والروم
هناك إن تسألي تنبي بأن لنا ... جر ثومة قهرت عز الجراثيم

فغضب هشام ، وقال : أخزى الله شاعرا يلقاني بقصيدة يمدح بها نفسك وأعلاج قومك ؟ فغاص في الماء ، فتطاول في البركة حتى كاد نفسه تخرج ؛ ثم نفاه من رقته إلى الحجاز (٢) .

ويقول اسماعيل بن يسار في قصيدة أخرى :

رب خال سريع لي ... ن وجد جعد كريم النصاب
إنما سمي الفوارس بالفر ... من محاماة رقة الأنساب
فاتركي الفخر يا ابنة عمنا ... واتركي الهذر والطلق بالصواب
واسألي ان جهلت عنا وعنكم ... كيف كنا في سالف الأحقاب
إذ نرى بناتنا وتدسر ... ن سفاحا بناتكم في التراب

---

(١) القرم : السيد الكريم ، معمم : معظم بالعمامة .
(٢) الأغاني ١٢٠ جـ ٤ .

ولما انشد إسماعيل هذه الأبيات ، قال له رجل عربي ممن كان يسمعه : إن حاجتنا إلى بناتنا غير حاجتكم إلى بناتكم » ، فأفشه ، يريد أن العجم يربون بناتهم لينكحوهن ، والعرب لا تفعل ذلك .

ويقول الحيقطان في الرد على جرير ، حين عيره بسواده ، يتعصب لأصله الحبشي ويفتخر به على العرب ، وهي قصيدة تحتج بها الشعوبية على قريش ومضر ، وتحتج بها العجم والحبش على العرب :

لئن كنت جعد الرأس والجلد فاحم ... فاني لسبط الكف والعرض أزهر
وإن سواد اللون ليس بضائري ... إذا كنت يوم الروع بالسيف أخطر
وإن كنت تبغي الفخر في غير كنهه ... فرهط النجاشي منك في الناس أفخر
فلقمان منهم وابنه وابن أمه ... وأرهطة الملك الذي ليس ينكر
غزاكم « أبو يكسوم » في أم داركم ... وأنتم كفيض الرمل أو هو أكثر
وما الفخر إلا ان تبيتوا إزاءه ... وانتم قريب نساركم تتعصر
ويدلف منكم قائد ذو هفيظة ... فكافحه طورا وطورا يدبر
واما الذي قلتم فتلكم نبوة ... وليس بكم صين الحرام المستر
ألست كليبيا وأمك نعجة ... لكم في سمان الضأن عار ومفخر

ويقول ابن رباح وهو من أصل زنجي يهجو جريرا ويفخر عليه بقومه :

ما بال كلب من كليب سبنا ... أن لم نوازن حاجبا وعقالا
والزنج لو لا قيتهم في صفهم ... لاقيت ثم جحاجحا أبطالا
جمعوا زيادا بابنه وتنازلوا ... لما دعوا لنزال ثم نزالا
أبناء كل نجيبة نجيبة ... أسد تربب عندها الأشبالا
فلنحن أنجب من كليب حؤولة ... ولأنت ألام منهم أخوالا

الهجاء :

انتشر الهجاء فى هذا العصر انتشاراً كثيراً ، لكثرة أسبابه ، وتعدد دواعيه ، فقد كان هناك هجاء سياسى بين شعراء الأحزاب كما أسلفنا ، وهجاء شخصى بين الشعراء أنفسهم ، دعت إليه المنافسة على أبواب الخلفاء والولاة ، أو العصبية للقبيلة

ولقد أفحش الشعراء فى هذا الباب ، وألحوا على ذكر المثالب والعيوب ، وتبشروا ما حرص الإسلام على دفنه ، من إثارة الخصومات ، وبعث العداوات . وأشهر ضروب المهاجاة فى العصر الأموى المهاجاة بين جرير والفرزدق والأخطل ، فقد قذفوا كل عرض ، وانتهكوا كل حرمة . وشجعهم على ذلك حرص الخلفاء على أن ينصرف الناس باستماع هذا الشعر ، والخلاف فيه ، عن معارضتهم فى السياسة ، ومنازعتهم على السلطان :

والمأثور لما تعارض به قرائح الشعراء فى هذا العصر يرى أنهم لم يتورعوا ، ولم يحجزهم تقى ، لا دين ، عن رمى المحصنات . وقذف الأعراض حتى كان الناس يستجيرون بقبر غالب أبى الفرزدق من هجائه فيجيرهم . وكان جرير كذلك مولعا أشد الولع بالوقوع فى الأعراض ، ويعد النساء شطر الهجاء ومادة الإقذاع ، حتى ليقال إنه دعا رجلا من شعراء بنى كلاب إلى مهاجاته . فقال الكلابى : إن نسائى بأمتعهن . ولم تدع الشعراء فى نسائك مترفقا .

ولكثرة ما أثم الشعراء ، وما خاضوا فيه من إفك وإثم ، أحس بعضهم بشناعة ما أجرم ، وشناعة ما قذف من عرض ، وهتك من ستر ، وخرق من حرمة ، حتى إن الفرزدق نسك فى آخر عمره وتعلق بأستار الكعبة ، وعاهد الله أن لا يكذب فى شعره ، ولا يشتم مسلما .

ومن الهجاء المرذول الأخطل فى قوم جرير :

قوم إذا استنبح الأضياف كلبهمو ... قالوا لأمهمو : بولى على النار

فتمنع البول شحا أن تجود به ولا تجود به إلا بمقدار
والخبز كالعنبر الهندى عندهم والقمح خمسون أردبا بدينار

وقوله فى تيم :

وكنت إذا لقيت عبيد تيم وتيما قلت : أيهم العبيد ؟
لئيم المالكين يسود تيما وسيدهم وإن كرهوا مسود

ومن هجاء الفرزدق لجرير :

ولو ترمى بازم بنى كليب بحرم الليل سارى سارى
ولو لبس النهار بنو كليب لدنس لؤمهم وضح النهار
وما يغدو عدى بن كليب ليطلب حاجة إلا بحمار

وقوله كذلك فى هجاء جرير :

فان تلك كليا من كليب فانى من الدارمين الطوال الشقاشق
هم الداخلون البيت لا تدخلونه على المالك والخارجون عند الحقائق
ونحن إذا عد الحصى عد قومنا بكاثر الوادى من وجوه السوابق

ومن مشهور قصائد الهجاء قول جرير يهجو الراعى النميرى فى قصيدته التى مطلعها :

أقلى اللوم عاذل والعتابا وقولى إن أصبت لقد أصابا
أجدك لا تذكر سهلة نجدا وحيا طالما ارتفعوا الأيابا

ومنها :

إذا غضبت عليك بنو نمير حسبت الناس كلهم غضابا
فلا وأبيك ما لاقيت حيا كيربوع إذا رفعوا النقابا
فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

ومنها :

فلا صلى الإله على نمير ولا سقيت غواديهم سحابا
أنا البازى المطل على نمير أتيح لها فمن ألجو اصطيادا

ومن نماذج الهجاء قول قيس بن ضمرة :

إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحا ... مني وما سمعوا من صالح دفنوا
صم إذا سمعوا خيرا ذكرت به ... وإن ذكرت بشر عندهم أذنوا
سجية تلك منهم غير محدثة ... إن الخلائق فاعلم شرها البدع

وقال عبد الرحمن بن الحكم :

لعا الله قيسا قيس عيلان إنها ... أضاعت ثغور المسلمين ونالت
فشاول بقيس في الطعان ولا تكن ... أخاهما إذا ما المعرفية سالت

وقال مالك بن أسماء في الهجاء :

لو كنت أحمل شعرا يوم زرتكم ... لم ينكر الكلب أني صاحب الدار
لكن أتيت وريح المسك يتبعني ... وتكره الكلب أذكيه على النار
فأنكر الكلب ريحي حين أبصرني ... وكاد يعرف ريح الزق والقار

وقال آخر :

أقول حين أرى كعبا وطيلسه ... لا بارك الله في بضع وستين
من السنين تولاها بلا حسب ... ولا حياء ولا قدر ولا دين

وقال الأرماح يهجو بني تميم :

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا ... ولو سلكت سبل المكارم ضلت
ولو أن برغوثا على ظهر قملة ... ينكر هجو صفي تميم لولت

الغزل :

الميل إلى المرأة ، والتعلق بها ، واضطرام الأحشاء بحبها ، غريزة فطرية تلازم الإنسان في جميع أطوار حياته ، وتقتضيها طبيعة إحساسه بحاجته إليها ؛ ومن هنا هام الشعراء بحب المرأة ، وكانوا بالحديث عنها ، وجعلوها أعذب أناشيدهم ، وأروع أغانيهم ، بل جعلوا الحديث عنها وسيلة إلى إثارة النفوس ،

وفتح مغاليق القلوب ، وإرهافا للأذان ، وبعثا للأريحية ، فاستهلوا به قصائدهم ، وافتتحوا أشعارهم ، وجعلوا ذلك مقدمة لما يريدون من غرض ، وينشدون من مأرب .

على هذا جرى الشعراء منذ الجاهلية ، وعلى هذا كان الشعراء فى عصر صدر الإسلام ؛ حتى لقد رأينا كعب بن زهير يفتتح قصيدته التى أنشدها أمام الرسول صلوات الله عليه ، فى مدحه ، بالحديث عن المرأة ، ووصف محاسنها فيقول :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول
وما سعاد غداة البين إذ رحلوا إلا أغن غضيض الطرف مكحول
هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة لا يشتكى قصر منها ولا طول

وإن كان الإسلام قد حد من إفحاش الشعراء فى الحديث عن المرأة ، ودعاهم إلى القصد فى القول ، والصدق فى الوصف ، والبعد عن الخرمات ؛ فلم يلبث الشعراء — بعد أن غفت عنهم الأعين الرقيبة ، ونامت اليقظة الساهرة — أن عادوا إلى سيرتهم الأولى ، فاستجابوا لنوازع النفوس ، وأهوائها ، وخضعوا لاضطرام الشهوات وعنفها ، وراحوا يقولون الشعر الذى توحى به المرأة ، لا يبالون ولا يتحرجون .

وهكذا شاع الغزل فى العصر الأموى ، وتعددت ألوانه ، واتسعت مظاهره : بل إنه أخذ مظهرا جديدا لم يكن له من قبل ؛ فقد وجد شعر الغزل مستقلا لا يشركه غرض آخر ، وظهرت وحدة الغرض فى القصيدة الغزلية ؛ كما وجد شعراء وقفوا حياتهم وفنهم على الغزل ، لا يقولون فى غيره ، ولا يطرقون بابا آخر سواه ؛ فكل خاطرة من خواطرهم ، وكل نزعة من نزعاتهم ، لا تتصل إلا بالمرأة ، وكل لفظة من ألفاظهم لا تصف إلا جمالها الفاتن ، وحديثها العذب ، وجرحها المبرح ، ووصالها الحلو ، وصدها المضنى .

وبهذا تجلت جدة الغزل فى شعر الأمويين ، واضحة وضوحا يكاد يجعله غرضا جديدا .

ومن الممكن أن نرجع ألوان الغزل الأموى ومذاهبه إلى أنواع ثلاث :

— ١ —

الغزل التقليدى :

وهو هذا النوع من الغزل الذى يفتتح به الشاعر قصيدته فى وصف المرأة ، أو الحنين إليها ، أو ما يكون له معها من وصل وصد ، ورجاء ويأس ، وإطماع وامتناع : وإن لم يبرح به هوى ، أو يستبد به حب ، أو تضنيه صبابة . ثم لا يلبث أن يتركها إلى ما يقصده من أغراض أخرى يهدف إليها فى قصيده .

وهذا النوع ليس جديدا فى هذا العصر ، وإنما كان تقليدا ومحاكاة للشعراء القدامى من الجاهليين ، كما ظل كذلك فى جميع العصور . ومعظمه صناعى ، لا أثر فيه لعاطفة أو شعور صادق .

وشعراء هذا اللون كثيرون فى هذا العصر ، منهم جرير والفرزدق والأخطل وعبيد الله ابن قيس الرقيات ؛ وذو الرمة ، وغيرهم .

هذا ابن قيس الرقيات يمدح عبد العزيز بن مروان ، فيقول فى مطلع مدحته :

لم يصح هذا الفؤاد من طربه ... وميله فى الهوى وفى لعبه

وهذا ذو الرمة يمدح بلال بن أبى بردة الأشعرى ، فيقول فى المطلع :

أراح فريق جيرتك الجمالا ... كأنهمو يريدون احتمالا

وهذا جرير يجيد الغزل مع دينه وعفته ، ومع انه يحدث عن نفسه ، فيقول : ما عشقت قط ، ولو عشقت لنسبت نسيبا تسمعه العجوز فتبكى على ما فات من شبابها . ومن رقيق غزله قوله :

بنفسى من تجنبه عزيز ... على ومن زيارته لمام

ومن أمسى وأصبح لا أراه ... ويطرقنى إذا هجع النيام

وقوله :

بان الخليط ولو طرفت ما بانا ... وزايلوا من حبال الوصل أقرانا
حتى المنازل إذ لا تبرحن بدا ... بالعين عنا ولا يطرأن حيرانا
إن العيون التى فى طرفها حور ... قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به ... وهن أضعف خلق الله إنسانا
يا حبذا جبل الريان من جبل ... وحبذا ساكن الريان من كانا
وحبذا نفحات من يمانية ... تأتيك من قبل الريان أحيانا

- ٢ -

الغزل العابث :

انطلق فريق من شعراء هذا العصر فى ميدان اللهو والمجون ، مستجيبين لما يتردد فى نفوسهم من شهوات عارمة ، وغرائز آثمة : فراحوا يتتبعون الحسن فى كل مكان ، ويترصدون الجمال فى كل موطن ، ويتطارحون النساء فى كل واد . لا يحجزهم قيد من دين ، ولا عرف من سلطان ، واكتفوا بتصوير ما قارفوا ، ويصفون ما شاهدوا ، أو يتخيلون ما يشتهون من بديع تتزع إليها غرائزهم : ويصورون ذلك فى قصائد رائقة تفيض بالعبث والمجون ، وتزخر باللذات العارمة ، وتثير الفتنة الفاتنة ، وتوقظ الشهوة الخافية .

وقد شاع هذا اللون الماجن من الشعر فى الحجاز ، ولعل السبب فى ذلك أن خلفاء بنى أمية قد احتجزوا دونهم شباب الهاشميين ، وأغدقوا عليهم الأموال الطائلة ، وأغرقوهم بالخيرات الكثيرة ، وسلطوا عليهم الفراغ واللهو ، ليصرفوهم عن شئون الخلافة وسياسة الدولة ، فلما شرقوا بالنعيم ، وأتخموا بالترف ، وضاقوا بالفراغ ، انصرفوا إلى مجالس الغناء ، وتتبع النساء ، ومغازلة الحسان ، والتعرض لهن فى كل مكان .

وهكذا شاع هذا اللون وذاع ، حتى شغل الناس به ، وفتن النساء بروعته وسحره ، وحتى كانت كل امرأة محجبة محصنة ، تتمنى أن يقال فيها شعر ، تتباهى به على أترابها ، وتفخر على أندادها .

والشاعر الأباحى من هذا النوع ، لا يتعلق قلبه بامرأة واحدة ، ولا يقف حياته على معبودة بعينها ، وإنما يقطف من كل بستان زهرة يانعة متأرجة ، فهو يهيم بامرأة يعجبه حسنها ويستهويه جمالها ، حتى إذا رأى أخرى أعجبه منها معنى آخر ، طار إليها ، وتعلق بها ، وهكذا لا تستريح نفسه ، ولا يقنع حبه .

وقد شاع فى هذا النوع الأباحى من الغزل الفن القصصى ، وهو وإن اتكأ على دعامة جاهلية من شعر امرىء القيس ، فقد استكمل عناصر القصة ، وحبك أطرافها ، واستوفى شخوصها ، ورسم لها الألوان والظلال ، التى تستثير المشاعر ، وتهيج العواطف . وزعيم هذه الطائفة عمر بن أبى ربيعة .

قال عمر فى رائيته المشهورة :

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر ... غداة غد أم رائح فمهجر

نهيم إلى نعم فلا الشمل جامع ... ولا الحبل موصول ولا القلب مقصر

ولا قرب نعم إن دنت لك نافع ... ولا نأيها يسلى ولا أنت تصبر

إذا زرت نعما لم يزل ذو قرابة ... لها كلما لاقيتها يتنمر

عزيز عليه أن ألم بيتها ... يسر لى الشحناء والبغض مظهر

بآية ما قالت غداة لقيتها ... بدفع أكمنان : أهذا المشهر (١)

قفى فانظرى أسماء هل تعرفينه ... أهذا الغوير « (٢) الذى كان يذكر

فقالت نعم لا شك غير لونه ... سرى الليل يحى نصه والتهجر (٣)

---

(١) المشهر : الذى شهر أمره . مدفع أكمنان : موضع .

(٢) نسبة إلى جده المغيرة .

(٣) التهجر : السير فى الهاجرة .

لئن كان إياه لقد حال بعدنا ... عن العهد والإنسان قد يتغير
رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت ... فيضحى وأما بالعشي فيخصر
أخا سفر جواب أرض تقاذفت ... به فلوات نهوه أشعث أغبر
قليل على ظهر المطية ظله ... سوى ما نفى عنه الرداء المحبر
وأعجبها من عيشها ظل خرفة ... وريان ملتف الحدائق أخضر
ووال كفاها كل شيء يهمها ... فليست لشيء آخر الليل تسهر

ثم يقول :

فلما فقدت الصوت منهم وأطفئت ... مصابيح شبت بالعشاء وأنور (١)
وغاب قبير كنت أرجو غيوبه ... ورد رعيان ونوم سمر (٢)
ونفضت عني النوم أقبلت مشية الـ ... ـحباب يزكي خيفة القوم أزور (٣)
فحييت إذ لاقيتهـا فتولهت ... وكادت بمكنون التحية تجهر
وقالت وعضت بالبنان فضحتني ... وأنت امرؤ ميسور أمرك أعسر
أريتك إذ هنا عليك ألم تخف ... رقيبا وحولي من عدوك حضر
فوالله ما أدري أتعجيل حاجة ... سرت بك أم قد نام من كنت تحذر
فقلت لها : بل قادني الشوق والهوى ... إليك وما عين من الناس تنظر
فلما تقضى الليل إلا أقله ... وكادت توالي نجمه تتغور
أشارت بأن الحي قد حان منهم ... هبوب ولكن موعد لك عزور (٤)
فما راعني إلا مناد برحلة ... وقد لاح مفتوق من الصبح أشقر
فلما رأت من قد تثور منهم ... وأيقاظهم قالت أثم كيف تأمر
فقلت أباديهم فأما أفوتهم ... وإما ينال السيف ثأرا فيثأر (٥)

---

(١) أنور : جمع نار ، ويقال أنور أيضا
(٢) رعيان : جمع راع — سمر : جمع سامر — روح رعيان : أي روحوا إبلهم عشاء
(٣) الحباب بضم الحباء : الثعبان ، أزور : مائل
(٤) عزور : موضع بمكة
(٥) أباديهم : أظهر عليهم

فقالت : أتحقيقاً لما قال كاشح ... علينا وتصديقاً لما كان يؤثر (١)
فان كان ما لا بد منه فغيره ... من الأمر أدنى للخفاء وأستر
أقص على أختي بدء حديثنا ... وما لي من أن تعلما متأخر
اعلمهما أن تبغيا لك مخرجا ... وأن ترحبا سربا بما كنت أحصر (٢)
فقامت كئيباً ليس في وجهها دم ... من الحزن تسرى عبرة تتحدر
فقالت لأختيها أعينا على فتى ... أتى زائراً والأمر للأمر يقدر
فأقبلتا فارتاعتا ثم قالتا ... أقلى عليك الهم فالخطب أيسر
يقوم فيمشي بيننا متنكرا ... فلا سرنا يفشو ولا هو يظهر
فكان مجني دون من كنت أتقي ... ثلاث شخوص كاعبان ومعصر (٣)
فلما أجزنا ساحة الحي قلن لي ... ألم تتق الأعداء والليل مقمر
وقلن : أهذا دأبك الدهر سادرا ... أما تستحي أو ترعوى أو تفكر (٤)

ويقول عمر أيضا :

قال لي صاحبي ليعلم ما بي ... أتحب القتول أخت الرباب
قلت : وجدي بها كوجدك بالخمـ ... ـر إذا ما مذقت طعم الشراب
من رسولي إلى الثريا بأني ... ضقت ذرعا بهجرها والكتاب
أزهقت أم نوفل إذ دعتها ... موجتي ، ما لقاتلي من متاب
حين قالت لها : أجيبي ، فقالت ... من دعاني ؟ قالت : أبو الخطاب
فأجابت عند الدعاء كما لبـ ... ـى رجال يرجون حسن الثواب
أبرزوها مثل المهاة تهادى ... بين خمس كواعب أتراب
وهي مكنونة تحير منها ... في أديم الخدين ماء الشباب

---

(١) يؤثر : يحكي
(٢) السرب ، بالفتح : الصدر ، وبالكسر : النفس . أحصر من حصر (كفرح) : ضاق ذرعا
(٣) المجن : الترس ، المعصر : المرأة راهقت العشرين .
(٤) السادر : الذي لا يبالي ما يصنع

دمية عند راهب ذى اجتهاد صورها فى جانب المحراب
ثم قالوا : تحبها ؟ قلت بهرا عدد النجم والحصا والتراب

وقال يزيد بن الطارية :

بنفسى من لو مر برد بنانه على كبدى كانت شفاء أنامله
ومن هابنى فى كل شىء وهبته فبلا حبه يعطينى ولا أنا سائله

— ٣ —

الغزل العذرى : أما هذا النوع من الغزل فهو الذى يصدر عن عاطفة صادقة ، وحب عميق ، وصبابة متأججة ، ونوى مشتعل ، ملك على المرء قلبه ، وسلب لبه ، وطغى على جميع مشاعره ، وصرفه عن الحياة وشهواتها ، وسلط كل ما فيه من عاطفة وإحساس إلى المعبودة التى لا يرى فى الحياة أجمل منها ، وإن لم تكن من أجمل النساء ، فلها يعيش ، وعليها يقف حياته وفنه ، وحبه وشعره : . وعماد هذا اللون الصدق فى العاطفة ، والعفة فى القول ، والتفانى فى المحبوب ، والضراعة فى الحب : فلا يتناول الشاعر الوامق مفاتن الجسم ، ولا محاسن الأعضاء ، ولا ما يثير الشهوة ، أو يناقض العفة . وإنما يعتمد على المعانى الروحية والنوازع القلبية ، ويشكو ما يكابد من آلام البعد ، وقسوة الحرمان والصد ، وتجهم الأيام ، ومعاكسة الزمان ، وقد تقنعه النظرة العاجلة ، أو الوعد المكذوب كما يقول جميل :

وإنى لأرضى من بثينة بالذى لو ابصره الواشى لقرت بلابله
بلا وبألا أستطيع وبالمنى وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضى أواخره لا نلتقى وأوائله

فهو لون حزين باك ، يستثير الشفقة ، ويبعث الرحمة ، ويدعو إلى الرثاء ، يزهد صاحبه فى الحياة ، حتى يسترخص كل غال فى سبيل من يحب ، ويستعذب

كل ألم من أجله ، ويتمنى لنفسه أسوأ الأماني ، وأنكد الحالات ، وشر ألوان الضرر ، ما دام ذلك من أجل المحبوبة :

ألا ليتني أعمى أصم تقودني بثينة لا يخفى على كلامها

لو جز بالسيف رأسي في مودتها لم يهو سريعا نحوها راسي

وهذا اللون الذي يتنفس فيه الشاعر حياته وحبه وشعره على محبوبة واحدة ، هو الذي يعرف بالحب العذري ، نسبة إلى بني عذرة ، وهي قبيلة بدوية من قضاعة ، اشتهر شبابها بالحب البريء الصادق ، والهوى العفيف المضني ، والموت في سبيل المحبوب . حتى قيل لرجل منهم : ما بال العشق يقتلكم يا بني عذرة ، فقال : لأن فينا جمالا وعفة .

ولم نر — فيما أثر لدينا — أن هذا النوع كان له وجود قبل هذا العصر ؛ فهو بهذا يعد جديدا كل الجدة .

ومن أظهر شعرائه : جميل بثينة ، وقيس بن الملوح صاحب ليلى العامرية ، وقيس بن ذريح صاحب لبنى ، وكثير عزة على المشهور .

ومن أمثلته قول جميل :

وما زلتم يا بثن حتى لو أنني من الشوق أستبكي الحمام بكى ليا

إذا خدرت رجلي وقيل شفاؤها دعاء حبيب كنت أنت دعائيا

وما زادني الأمر المفرق بعدكم سلوا ولا طول التلاقي تقاليا

ولا زادني الواشون إلا صبابة ولا كثرة الناهين إلا تماديا

ألم تعلمي يا عذبة الريق أنني أظل إذا لم أسق ريقك صاديا

لقد خفت أن يقتالني الموت بغتة وفي النفس حاجات إليك كما ميا

وإني ليثنيني لقاؤك كلما لقيتك بوما أن أبثك ما بيا

وقال كثير عزة :

وما كنت أدري قبل عزة ما البكا ولا موجعات القلب حتى تولت

فقلت لها ياعز كل مصيبة ... إذا وطنت يوما لها النفس ذلت
ولم يلق إنسان من الحب ميتة ... تمم ولا غماء إلا تجلت
أريد الثواء عندها وأظنها ... إذا ما أطلنا عندها الكث ملت
فما أنصفت أما النساء فبضنت ... إلى وأما بالنوال فضنت
يكلفنـــا الغيران شتمي ومابها ... هوانى ولكن للمليك استذلت
هنيئا مريئا غير داء مخامر ... لعـــزة من أعراضنا ما استحلت
فوالله ما قاربت إلا تباعدت ... بهجر ولا أكثرت إلا أقلت
فان تكن العتبى فأهلا ومرحبا ... وحقت لها العتبى لدينا وقلت
وإن تكن الأخرى فان ورامنا ... مناديح لو سارت بها العيس كلت
أسيئى بنـــا أو أحسنى لاملومة ... لدينا ولا مقلية إن تقلت
فما أنا بالداعى لعزة بالجوى ... ولا شامت إن نعل عزة زلت
فلا يحسب الواشون أن صبابتى ... بعزة كانت غمرة فتجلت
فوالله ثم الله ما حل قبلها ... ولا بعدها من خلة حيث حلت
فيا عجبا للقلب كيف اعترافه ... وللنفس لما وطنت كيف ذلت
وإنى وتهيامى بعزة بعدما ... تخليت مما بيننا وتخلت
لكالمرتجى ظل الغمامة كلما ... تبوأ منها للمقيل اضمحلت
وكانت اقطع الحبل بينى وبينها ... كناذرة نذرا فأوفت وحلت

وكان الصمة بن عبد الله القشيرى [1] يهوى ابنة عمه ، فتماسك أبوه وعمه فى المهر ، وبخل كلاهما متمسكا برأيه ، فتركهما الصمة وانصرف إلى الشام ، وكتب نفسه فى الجند ، واستبد به الحنين ، فقال :

حننت إلى ريا ونفسك باعدت ... مزارك من ريا وشعباكما معا
فما حسن أن تأتى الأمر طائعا ... وتجزع ان داعى الصبابة أسمعا

---

(١) كان رجلا شريفا ناسكا عابدا شاعرا غزلا رقيقا مقلا بدويا من شعراء الدولة الاموية .

قفا ودعا نجدا ومن حل بالحمى ... وقل لنجد عندنا أن يودعا
بنفسي تلك الأرض ما أطيب الربا ... وما أحسن المصطاف والمتربعا
ولما رأيت البشر قد حال دونها ... وجالت بنات الشوق يحن نزعا (١)
بكت عيني اليسرى فلما زجرتها ... عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معا (٢)
تلفت نحو الحي حتى وجدتني ... وجعت من الإصغاء ليتا وأخدعا (٣)
وأذكر أيام الحمى ثم أنثني ... على كبدي من خشية أن تصدعا (٤)
وليست عشيات الحمى برواجع ... إليك ولكن خل عينيك تدمعا

ويقول مجنون ليلى :

ألا أيها البيت الذي لا أزوره ... وإن حله شخص إلى حبيب
هجرتك إدفاقا وزرتك خائفا ... ووقيك على الدهر منك رقيب
سأستعتب الأيام فيك لعلها ... بيوم سرور في الزمان تثوب

ويقول وقد أخذه أبوه إلى الكعبة ، وقال له : تعلق بها وقل اللهم ارحني من ليلى وحبها ، فلما تعلق بها قال :

يقر بعيني قربها ويزيدني ... بها شغفاً من كان عندي يعيبها
وكم قائل قد قال تب فعصيته ... وتلك لعمري توبة لا أتوبها
فيانفس صبرا لست والله فاعلمي ... بأول نفس غاب عنها حبيبها

---

(١) البشر جبل في أطراف نجد من جهة الشام . وجالت : تحركت . وبنات الشوق مسبباته وآثاره . ونزع بضم النون وتشديد الزاي المفتوحة جمع نازع أي مشتاق ذو ميل وحنين .

(٢) كان الهمة أعور العين اليمنى ، ومما يدل على ذلك قوله :

عذرتك يا عيني الصحيحة بالبكا ... فما أولع العوراء بالهملان

(٣) الليت بكسر اللام صفحة العنق . والأخدع عرقان في جانبي العنق ، والإصغاء : الميل .

(٤) التصدع التشقق والانفطار .

ويقول قيس بن ذريح فى لبنى :

فان يحجبوها أو يحل دون وصلها ... مقالة واش أو وعيد أمير
فلن يحجبوا عينى من دائم البكا ... ولن يذهبوا ما قد يجن ضميرى
إلى الله أشكو ما ألاقى من الهوى ... ومن كرب تعتادنى وزفير

وقال قيس لبنى :

فان تك لبنى قد أتى دون قربها ... حجاب منيع ما اليه سبيل
فان نسيم الجو يجمع بيننا ... ونبصر تربى الشمس حين تزول
وأرواحنا بالليل فى الحى تلتقى ... ونعلم أنا بالنهار نقيل
وتجمعنا الأرض القفار وفوقنا ... سماء نرى فيها النجوم تجول

أغراض أخرى :

وهناك أغراض أخرى متعددة ، قال فيها الشعراء فأكثروا ، وصوروا فأجادوا لم يتخلفوا عن أقرانهم ، ولم يضعفوا فى ميدانهم ، وإنما نهضوا سباقين ، وجالو فى كل ناحية مبرزين .

— ١ —

الوصف :

ومن نماذجه الكثيرة قول أبى النجم يصف فهود عبد الملك بن مروان :

فهن ضوار من مضريات
تريك آماقا مخططات
سودا على الأشداق شائلات
تلوى بأذناب موقفات

وقال الفرزدق يصف ذئبا :

وأطلس عسال وما كان صاحبا ... دعوت لقارى موهنا فأتانى [1]

---

(١) أطلس : أبهر اللون . . . عسال : مضطرب فى مشيته . موهنا : نحو من نصف الليل .

فلما أتى قلت : ادن ، دونك ، إننى ... وإياك فى زادى لمشتركان
فبت أقد الزاد بينى وبينه ... على ضوء نار مرة ودخان (١)
وقلت له لما تكشر ضاحكا ... وقائم سيفى من يدى بمكان
تعش ، فان عاهدتنى لا تخوننى ... نكن مثل من - ياذئب - يصطحبان
وأنت امرؤ - ياذئب - والغدر كنتها ... أخين كانا أرضعا بلبان
ولو غيرنا نبهت تلتمس القرى ... رمالك بسهم أو شباة سنان (٢)
وكل رفيق كل رحل ، وإن هما ... تعاطى القنا قوماهما ، أخوان

ويقول الأخطل فى وصف الخمر :

وتظل تحفظها بها قروية ... إبريقها برقاعه ملثوم
فاذا تعاورت الأكف زجاجها ... نفحت فشم ريا حها المزكوم

ويقول الوليد بن يزيد :

من قهوة زانها تقادمها ... فهى عجوز تعلو على الحقب
أشهى إلى الشرب يوم جلوتها ... من الفتاة الكريمة النسب
فقد بجات ورق جوهرها ... حتى تبدت فى منظر عجب
فهى بغير المزاج من شرر ... وهى لدى المزج سائل الذهب
كأنها فى زجاجها قبس ... تذكو ضياء فى عين مرتقب

ويقول الأخطل كذلك فى وصف الكأس :

وكأس مثل عين الديك صرف ... تنسى الشاربين لها العقولا
إذا شرب الفتى منها ثلاثا ... بغير الماء حاول أن يطولا
مشى قرشية لمشيك فيها ... وأربى من مآزره الفضولا

وقال يصف السكران :

صريع مدام يرفع الشرب رأسه ... ليحيا وقد ماتت عظام ومفصل

---

(١) أقد : أنظم . (٢) الشبا : الطرف .

نهاديه أحيانا وحينا نجره ... وما كان إلا بالحشاشة يعقل
إذا وقعوا صدرا تحامل صدره ... وآخر منسا نال منهسا تمهل

وقال بعض الحجازيين يصف حال امرأته عندما علمت بزواجه من غيرها وهو عمر بن أبي ربيعة :

خبروهـا بأنني قد تزوجـ ... ـت فظلت تكاتم الغيظ سرا
ثم قالت لأختهـا ولأخرى ... جزعا : ليته تزوج عشرا
وأشـارت إلى نسـاء لديهـا ... لا ترى دونهن للسر مستترا
ما لقلبي حكأنه ليس مني ... وعظامي كأنهـا فيهن فترا
من حديث نمـا إليّ فطيع ... خلت في القلب من تلظيه جمرا

وقال حطان بن المعلى يصف حاله وحال بناته :

أنزلني الدهر على حكمه ... من شـامخ عال إلى خفض
وغالني الدهر بوفر الغنى ... فليس لي مال سـوى عرضي
أبكاني الدهر ويا ربما ... أضحكني الدهر بمـا يرضي
لولا بنيـات كزغب القطا ... رددن من بعض إلى بعض (١)
لـكان لي مضطرب واسـع ... في الأرض ذات الطول والعرض (٢)
وإنمـا أولادنا بيننـا ... أكبادنا تمشي عـلى الأرض
لو هبت الريح على بعضهم ... لا متقعت عيني من الغمض (٣)

* * *

(١) الزغب : الشعر اللين الصغير ، وكنى بهذا عن الضعف والصغر . رددن الخ . اى تتابعن وكثرن كل واحدة جنب الاخرى .

(٢) المضطرب : الاضطراب والحركة . المعنى : لو لاخوفي من ضياعهم لكان لي مجال واسع في الارض وانما لزمت مكاني بسببهن .

(٣) المعنى : انه لا يطمئن إلا إذا كانوا سالمين بأجمعهم .

— ٢ —

شعر الحماسة :

قال قطرى بن الفجاءة الخارجى :

أقول لها وقد طارت شعاعا ... من الأبطال ويحك لن تراعى [١]
فانك لو طلبت بقاء يوم ... على الأجل الذى لك لن تطاعى
فصبراً فى مجال الموت صبراً ... فما نيل الخلود بمستطاع
وما ثوب البقاء بثوب عز ... فيطوى عن أخى الخنع اليراع [٢]
سبيل الموت غاية كل حى ... وداعيه لأهل الأرض داع
ومن لا يعتبط يسأم ويهرم ... وتسلمه المنون إلى انقطاع [٣]
وما للمرء خير فى حياة ... إذا ما عد من سقط المتاع

. . .

وقال سعد بن ناشب :

سأغسل عنى العار بالسيف جالباً ... على قضاء الله ما كان جالباً
وأذهل عن دارى وأجعل هدمها ... لعرضى عن باقى المذمة حاجبا
ويصغر فى عينى تلادى إذا اشتنت ... يميني بادراكى الذى كنت طالباً
فان تهدموا بالغدر دارى فانها ... تراث كريم لا يبالى العواقبا

— ٣ —

المديح :

قال جرير يمدح عبد الملك بن مروان :

---

(١) شعاعاً أى متفرقة (٢) الخنع : الذل والضيم ، واليراع الجبان المستطار القلب .
(٣) يعتبط يمت شابا .

أتصحو ، أم فؤادك غير صاح ... عشية هم صحبك بالرواح (١)

تقول العاذلات : علاك شيب ! ... أهذا الشيب ينهى مراسى ؟ (٢)

تعزت أم حزرة ثم قالت : ... رأيت الواردين ذوى امتناح (٣)

تعلل وهى ساغبة بنيها ... بأنفاس من الشبم القراح (٤)

سأمتاح البحور بقنيني ... أذاة اللوم وانتظرى امتياحى (٥)

ثقى بالله ليس له شريك ... ومن عقد الخليفة بالنجاح

أغثنى — يا قداك أبى وأمى — ... بسيبك منك ، إنك ذو ارتياح (٦)

فانى قد رأيت على حقا ... زيارتى الخليفة وامتداحى

سأشكر إن رددت على ريشى ... وأنبت القوادم فى جناحى (٧)

ألستم خير من ركب المطايا ... وأندى العالمين بطون راح (٨)

وقوم قد سموت لهم فدانوا ... بدهم فى ملمة رداح (٩)

أبحت حمى تهامة بعد نجد ... وما شىء حميت بمستباح (١٠)

---

(١) تصحو: تترك الباطل . الرواح : الذهاب عشية . ويصح أن تكون أم بمعنى بل أى للاضراب.

(٢) المراح : الاختيال والتبختر .

(٣) أم حزرة : زوج جرير . امتناح : عطاء .

(٤) تعلل : تشغل وتلهى ساغبة جائعة الشبم البارد من الماء القراح الصافى .

(٥) متح الماء استقاه واستخرجه من البئر والمراد العطاء الذى ينا له من عبد الملك بن مروان المشبه بالبحر عطاء .

(٦) السيب العطاء ذو ارتياح أى الى الكرم .

(٧) القوادم جمع قادمة الريش فى مقدم الجناح وهى كبار الريش وضدها الخوافى والمراد إن أعزتنى .

(٨) المطايا جمع مطية الراح جمع راحة بطن الكف .

(٩) سموت لهم خرجت إليهم مغيرا . دانوا خضعوا . دهم خيل سود ، الواحد أدهم الملمة الكثيرة المجتمعة رداح كثيفة ثقيلة

(١٠) أبحت حللت . الحمى ما يحميه الانسان ويمنعه — إشارة الى حروبه فى بلاد العرب

— ٤ —

الرثاء :

ونماذجه كثيرة فى الشعر الاموى :

قال جرير يرثى زوجته :

لولا الحياة لهاجنى استعبار ... ولزرت قبرك والحبيب يزار
ولقد أراك كسيت أجمل منظر ... ومع الجمال سكينة ووقار
والريح طيبة إذا استقبلتها ... والعرض لا دنس ولا خوار
وإذا سريت رأيت نارك نورت ... وجها أغر يزينه الاسفار
صلى الملائكة الذين تخيروا ... والصالحون عليك والأبرار

* * *

وقال كعب الغنوى يرثى أخاه :

تقول سليمى ما لجسمك شاحبا ... كأنك يحميك الشراب طبيب
فقلت نحول من خطوب تتابعت ... على صغار والزمان يريب
لعمرى لئن كانت أصابت منية ... أخى فالمنايا للرجال شعوب
فانى لباكيه وإنى لصادق ... عليه وبعض القائلين كذوب
أخ كان يكفينى وكان يعينى ... على نائبات الدهر حين تنوب
هو العسل الماذى لينا وشيمة ... وليث إذا لاقى الرجال قطوب
كعالية الرمح الردينى لم يكن ... إذا ابتدر الخيل الرجال يخيب
وداع دعا يا من يجيب إلى الندى ... فلم يستجبه عند ذاك مجيب
فقلت ادع أخرى وارفع الصوت ثانيا ... لعل أبا المغوار منك قريب
يجيبك كما قد كان يفعل إنه ... بأمثاله رحب الذراع أريب
فلو كانت الموتى تباع اشتريته ... بما لم تكن عنه النفوس تطيب

بعيني أو يمنى يدى وخلتنى أنا الغانم الجذلان حين أؤوب
فوالله لا أنساه ماذر شارق وما اهتز من فرع الأراك قضيب

— ٥ —

الاعتـــذار :

ومن نماذجه قول الكميت يعتذر إلى هشام بن عبد الملك :

كم قال قائلكم : لعا لك عنـد عثرته لعاثر (١)
وغفـوتم لذوى الذنو ب من الأكابر والأصاغر
أبنى أميـــة إنكم أهل الوسائل والأواصر
نقى لـكل ملمـة وعشيرتى دون العشائر
أنتم معادن للخـلا فة كابرا من بعـد كابر
بالتسعة المتتابعيـن خلائفا وبخير عاشر
وإلى القيامـة لا تزا ل لشافع منكم وواتر

---

(١) لعالك : كلمة دعاء تقال للعاثر بمعنى أقال الله عثرتك

مميزات الشعر الأموى

الألفاظ والأساليب :

تأثر الشعر العربى فى هذا العصر بعوامل متعددة ، كان لكل عامل منها أثره الخاص فى ألفاظه وأساليبه :

١ — فقد التفت العرب إلى القرآن الكريم ، وجعل يستظهر آياته ، ويتملى من بلاغته ، ويعجب بأساليبه البارعة ، وألفاظه العذبة ، وديباجته المشرقة . واستمع إلى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، وما يلتمع فيها من جوامع الكلم ، وسلاسة الأسلوب ، وإشراق البيان ، فكان لهذا أثره فى تهذيب لفظ الشعر وأسلوبه ، وترقيق حواشيه وصفاء ديباجته .

٢ — وإلى ذلك عنى القوم برواية الشعر الجاهلى واستظهاره ، وإحياء آداب القدماء ، بما تنطوى عليه من جزالة الألفاظ ، وضخامة الأساليب ، فكان لا بد أن تتأثر لذلك أذواقهم ، وتنطبع عليه ألسنتهم ، ويظهر ذلك فى منطقهم .

٣ — ثم كان هناك شعراء غمرتهم الحضارة ، واستولى عليهم الترف ، وعاشوا فى ظلال النعيم الذى أتيح لهذه الدولة . وللحضارة أثرها فى رقة اللفظ ، وعذوبة المنطق ، وسهولة الأسلوب .

كما كان هناك شعراء آخرون عاشوا فى البادية ، أو عاشوا بروح البادية ، وانطبعت فى نفوسهم صورها الخشنة ، وأطيافها الجافية ، فكانوا بدويين فى تفكيرهم ومنطقهم وأسلوب شعرهم .

* * *

ومن هنا وجدت فى الشعر نزعات مختلفة ، ومذاهب متباينة ، وألوان متعددة ، كانت نتيجة لاختلاف هذه العوامل الثلاث .

فهناك من الشعر ما يروعنا بحلاوة جرسه ، ورقة لفظه ، وعذوبة أسلوبه ، وسماسة منزعه ، وتدفق الأنغام الشجية التى تنساب من بين ثناياه . وهو الشعر الذى تأثر بأدب الإسلام ، أو عاش فى الحواضر المترفة . ومن أصحاب هذا النوع شعراء الغزل الحجازيون كعمر وجميل والأحوص ، وبعض شعراء الأمصار كجرير ، الذى كان الفرزدق يقول فيه : ما أحوجنى مع فسوق إلى رقة شعره ، وأحوجه مع عفافه إلى خشونة شعرى [1] » .

وكذلك تجد فى الشعر الأموى ما يطالعنا بجزالة لفظه ، وقوة أسلوبه ، ومتانة تركيبه ، وغرابة منزعه ، ووعورة مسلكه ، وبداوة سمته ، وذلك هو الشعر الذى تغذى أصحابه بآثار الجاهليين ، وارتضعوا أفاويق القدماء ، وعاشوا بروح البادية ، وانطبعوا بطابعها ، كالفرزدق وذى الرمة والقطامى والأخطل .

* * *

ومن السمات البدوية التى شاعت فى هـــذا العصر ظهور الأراجيز وكثرتها فقد عنوا بها عناية جعلتها تقرب من القصائد فى أكثر خصائصها ، فبعد أن كان البدوى ينظم منها بضع مشطورات يحدو بها الإبل أو يصف بها ظبيا أو ظليما أو ثورا وحشيا ، أخذ الفحول من الرجازين يطولون الأراجيز ، وينحون بها منحى القصائد ، ويضمنونها أغراضها من المدح والهجاء والفخر والرثاء ، وصاروا يمهدون لهذه الأغراض بالنسيب ، وذكر الديار وآثارها ، والظعائن وحدوجها ، ويقصدون بها الخلفاء والولاة .

ويرى بعض الأدباء كابن قتيبة أن الأغلب العجلى أول من اتخذ الرجز

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٢٧

سناعة فنية ، وأطال فيه ، وجوده . أما أبو عبيدة فيذكر أن السجاج هو أو
ن أطاله وقصده وشبب فيه ووصف الرحلة ، إلى الممدوح كما فعل الشعر
القصيدة ، فكان في الرجاز كامرىء القيس في الشعراء .

ومن الرجازين في العصر الأموي غير العجاج والأغلب العجلي : رؤبة
لعجاج ، وأبو النجم ، ودكين ... ومن أمثلة الرجز قول أبي النجم :

إني وكل شاعر من البشر شيطانه أنثى وشيطاني ذكر
فما رآني شاعر الا استتر فعل نجوم الليل عاين القمر
عيشي تميم واصغري فيمن صغر وباشري الذل وأعطي من عشر
وأمري الأنثى عليك والذكر

المعاني والأخيلة :

أما معاني الشعر في هذا العصر فهي المعاني التي تداولها الشعر قبله ؛ بيد أن
وسعوا فيها ، وزادوا عليها ، بما تهيأ لهم من مظاهر الحياة ، وألوان الحضارة
سعة الثقافة ، والاختلاط بأمم ذات حضارات ومعارف متنوعة ... بل إ
من هذه الأمم من تم نضجه الأدبي ، واستوى فنه العربي ، فقال الشعر بالعر
متأثرا بثقافته وما ورث من أفكار ومعان وأخيلة .

ومن هنا غلبت على معاني الشعر الدقة والعمق وترتيب الأفكار ، وكثر
الحكم والأمثال ، وتنوعت التشبيهات ، وسما الخيال ، وبدت صبغة الجدة واضح
في بعض المناحي والأغراض .

طوائف الشعراء الأمويين

انقسم الشعراء الأمويون طوائف ، من حيث أغراضهم الشعرية ، ومن حيث اتجاهاتهم الفنية :

— ١ —

فهم من حيث الأغراض جماعات ثلاث :

١ — أما الأولى فشعراء الغزل ، وقد مر بنا ذكر الكثير منهم ، ونماذج من أشعارهم ومذاهبهم فى الغزل . ومن أشهرهم : جميل بن معمر المتوفى عام ٨٢ هـ ، وكثير عزة المتوفى عام ١٠٥ هـ ، ونصيب ، والأحوص .

ويمتاز شعر الغزلين على وجه العموم بالرقة والعذوبة والسهولة .

٢ — والثانية الشعراء السياسيون ، الذين وقفوا أنفسهم على الدفاع عن الأحزاب السياسية ، والعصبيات القبلية ، وإذاعة المفاخر والمثالب ؛ ومن هؤلاء جرير ، والفرزدق والأخطل ، والكميت ، وابن قيس الرقيات ، ممن انتموا إلى الأحزاب السياسية يؤيدون أصحابها ، وينصرونهم بقوة البيان ، ويشيدون بدعواتهم فى قصائدهم ومقطوعاتهم ، ويجمعون حولهم القلوب ، ويفرقون فى سبيل مذهبهم الوحدة ، حتى صار شعرهم غذاء للعصبيات ، ومادة للمفاخرات والمهاترات ، يروى أن الهاشميين عرضوا الكميت الشاعر على إثارة العصبية بشعره ؛ قال المسعودى فى مروج الذهب إن عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب قال للكميت : إنى قد رأيت أن تقول شيئا تغضب به بين الناس ، لعل فتنة تحدث ، فيخرج من بين أصابعها بعض ما نحب ، فأنشد قصيدة ذكر فيها مناقب

بنى نزار من ربيعة ومضر ، وأطنب فى وصفهم وفضلهم على بنى قحطان ، وعرض بما كان من شأنهم مع الأحباش وغيرهم ، ومن هذه القصيدة قوله :

لنا قمر السماء وكل نجم تشير إليه أيدى المهتدينا
وجدت الله إذ سمى نزارا وأسكنهم بمكة قاطنينا
لنا جبل المكارم خالصات وللناس القفا ولنا الجبينا

٣ — والثالثة الشعراء المجاهرون ، الذين أكثروا من الهجاء ، وعاشوا عليه ، وتبادلوا المناقضات ، يحيون بها العصبية ، ويؤرثون العداوة ، ويتبارون فى فنون الهجاء المقذع ، والتباهى بأحساب الجاهلية ومآثرها وأيامها ، ونبش مادفنه الإسلام من مثالب القبائل ومعايبها ، ومن هؤلاء : جرير والفرزدق والأخطل والراعى والبعيث .

— ٢ —

ومن حيث اتجاهات الشعراء الفنية ، فى عصر بنى أمية انقسموا جماعات وطوائف :

فالأولى : شعراء البادية ، الذين لم يتأثروا بالحياة الجديدة كبير تأثر ، ولم يغيروا من عيشهم تغييرا يذكر : فظلوا يحاكون نمط الجاهليين فى نظم القريض أسلوبا وألفاظا ومعانى وخيالات ، ومن هؤلاء : ذو الرمة والرماح بن ميادة ؛ سمع الفرزدق ذا الرمة ينشد ، فوقف عليه ، فقال : كيف ترى ما تسمع يا أبا فراس ؟ قال : ما أحسن ما تقول ، قال فما لى لا أذكر مع الفحول ؟ قال : قصر بك عن غايتهم بكاؤك فى الدمن ، ووصف الآبار والعطن .

ولذلك كان شعر هذه الطبقة بدويا جزلا فخم الألفاظ والأساليب .

والثانية : شعراء الأمصار : كمكة والمدينة ودمشق والبصرة والكوفة ، ممن كانوا عربا خلصا ، وقد تأثر هؤلاء ببيئتهم وعصرهم وبالقرآن الكريم وبالثقافات

لى ذاعت بينهم ، وأتى شعرهم حضريا رائعا سلسا فى جزالة ، وإن امتاز شع
لحجاز بالرقة والسلاسة أكثر من غيره ، ومن هؤلاء : ابن قيس الرقيات
جرير والاخطل والفرزدق ، وعمر بن أبى ربيعة .

والثالثة : الشعراء الموالى الذين كانو من أصول غير عربية : كنصيب وعبد ب
لحسحاس وقد كانا من عنصر حبشى ، وكزياد الأعجم والبعيث وأبى نخيلة وموس
نهوات وهم من أصول فارسية .. ولا شك أن شعر هؤلاء كان صورة لما ورثو
ن دماء وثقافة ومشاعر وأفكار وخواطر ووجدانات ، فبدت فيه المعانى الجديد
الأخيلة الجميلة ، والتشبيهات الغريبة واضحة ملموسة .